

د . إبراهيم عوض

ابطال القبيلة القوية الملاقاة على السيرة النبوية

خطاب مفتوح إلى د. محمود علي مراد
في الدفاع عن سيرة ابن إسحاق

١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م

مكتبة زهراء الشرق
١١٦ ش. محمد فريد - القاهرة

د . إبراهيم عوض

إبطال القنبلة النووية اللقاة على السيرة النبوية

خطاب مفتوح إلى د . محمود علي مراد
في الدفاع عنه سيرة ابنه إسحاق

١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م

مكتبة زهراء الشرق
١١٦ ش محمد فريد - القاهرة

المقدمة

البحث الذى بين يدى القارئ الكريم يدور حول رسالة علمية مكتوبة بالفرنسية قدمها د. محمود على مراد إلى جامعة السوربون الجديدة (باريس ٣) وحصل بها على درجة الدكتوراة فى التاريخ الإسلامى فى العام الجامعى ١٩٩٦م - ١٩٩٧م ، وكان موضوعها « سيرة الرسول لابن إسحاق / ابن هشام - الفترة المكية : تحليل نقدي للنص » . وقبل القيام بعرض هذه الرسالة يحسن أن نعرف القارئ بصاحبها ، ولا أظن أن هناك طريقة أفضل من ترك الدكتور مراد نفسه يقوم بهذا العمل ، فقد أرسل لى مشكوراً من جنيف ، حيث يقيم منذ ربع قرن ، خطاباً بتاريخ ٢٤ ديسمبر ١٩٩٨م احتوى على البيانات الخاصة به وعلى سيرة حياته العلمية . وهأنذا أنقل ما كتبه بالنص وتحت نفس العنوان الذى عنوانه به :

بيانات عن محمود على مراد

مصرى ، مولود عام ١٩٢٦م بالخرطوم .
يقيم بجنيف (سويسرا) منذ ربع قرن .

الشهادات :

ليسانس الحقوق من جامعة الإسكندرية .
دبلوم فى القانون العام .

دبلوم فى الاقتصاد السياسى .

ليسانس الآداب (إنجليزى) .

دبلوم دراسات عليا (إنجليزى) من جامعة جرينويل بفرنسا .

دبلوم دراسات عليا فى الدراسات العربية والإسلامية من جامعة ليون بفرنسا .

دكتوراه فى التاريخ الإسلامى من جامعة باريس ٣ (السهرىون الجديدة) فى موضوع : سيرة الرسول لابن إسحاق / ابن هشام -
الفترة المكية : تحليل نقدى للنص .

الخبرة العامة :

٤ سنوات موظفا ككاتب فى المحاكم المختلطة بالإسكندرية .

٢٢ سنة بالبنك البلجيكي والدولى بمصر ، الذى أصبح اسمه بعد تأميمه : بنك بور سعيد ، والذى أُدمج بعدها فى بنك مصر . وكان آخر منصب تولاه قبل ترك البنك سنة ١٩٧٠م هو مدير الإدارة المركزية لبنك بور سعيد .

مستين مترجما عربيا بالأمم المتحدة بنيويورك .

١٨ سنة مدرسا ثم أستاذ كرسى متفرغا ومسؤولا عن الوحدة العربية بمعهد الترجمة والترجمة الفورية بجامعة جنيف (١٩٧٣م - ١٩٩١م) . وقد منح عند خروجه على المعاش فى سن الخامسة والستين لقب : أستاذ فخري بجامعة جنيف .

عمل بالترجمة التحريرية والفورية كمترجم حر فى كثير من

المنظمات والمؤتمرات الدولية ، وأتاح له ذلك زيارة عديد من البلاد شرقا وغربا .

الأعمال المنشورة :

٧ محاضرات عن أعمال البنوك : معهد الدراسات المصرفية ، القاهرة ، ١٩٥٥م - ١٩٦٨م

ترجمة « المأساة الإنسانية » ، وهي مسرحية شعرية بقلم الشاعر الإنجليزي توماس كيد (المعاصر لشيكسبير) مع مقدمة عن المسرحية : دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر ، وزارة الثقافة ، القاهرة ، ١٩٦٧م .

« شوية حنان » مسرحية من ثلاثة فصول باللغة العامية : دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٧م .

ترجمة « السيمفونية للرعب » للكاتب الفرنسى أندريه جيد (بالاشتراك مع أبو بكر محمد بكر) : دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٩٨م .

ترجمة سبع مسرحيات للمؤلف الإنجليزي - الأيرلندى جورج برنارد شو الحاصل على جائزة نوبل هي :

١ - بيوت الأراذل .

٢ - العايب .

٣ - السلاح والإنسان .

٤ - كانديدا .

٥ - رجل المقادير .

٦ - تلميذ الشيطان .

٧ - هداية القبطان براسباوند .

مع مقدمة عامة عن برنارد شو ومقدمة لكل من المسرحيات السبع .
وقد صدرت ترجمة هذه المسرحيات ومقدماتها في ثلاثة أعداد
بتواريخ أول يونية ١٩٧٢م وأول ديسمبر ١٩٧٣م وأول ديسمبر
١٩٧٥م ضمن سلسلة « من المسرح العالمي » عن وزارة الإعلام
الكويتية .

برنارد شو والإسلام : دار الهلال ، القاهرة ، ١٩٨٩م .
ترجمة مجموعة قصص بعنوان « جنازة الأم الكبيرة » عن الإسبانية
للكتاب الكولومبي جابريل جارتيا ماركيز الحاصل على جائزة
نوبل ، مع مقدمة عامة : الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ، ١٩٩٤م .
ترجمة كتاب « الإسلام المعاصر » عن الفرنسية للدكتور علي مراد
(الجزائري) الأستاذ بجامعة السوربون : الهيئة المصرية العامة
للكتاب ، ١٩٩٤م .

ترجمة كتاب « محمد واليهود » للمؤلف الهندي د. بركات
أحمد : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٦م .

- ترجمة رواية « الأم » للكاتبة الإيطالية « جراتسيا ديليدا » الحائزة
لجائزة نوبل : الدار المصرية اللبنانية ، ١٩٩٧م .

ترجمة وتقديم مسرحية « موت فوضوى قضاء وقدر » ، للمؤلف
المسرحى الإيطالى « داريو فو » الحائز لجائزة نوبل : دار الهلال ،
١٩٩٨ م .

وكنْتُ قد سمعت من الأستاذ المستشار رابع لطفى جمعة (ابن د .
محمد لطفى جمعة الكاتب المعروف) بالدكتور مراد مرارا ، مقرونا
اسمه فى كل مرة بالشَّاء الجميل على أدبه وعلمه ودماثة طبعه وسمو
خلقه . وكان المستشار جمعة فى كل مرة أيضا يَشير إلى رسالته عن
السيرة النبوية التى كتبها ابن إسحاق وشرحها وعلّق عليها وتصرّف فيها
بعض التصرف ابن هشام . وقد فهمتُ أن الأستاذ الدكتور قد وصل إلى
نتائج تخالف ما قرأ فى أذهاننا عن هذه السيرة وعن كاتبها فأحببتُ أن
أُطلع عليها . وكنْتُ قد أرسلت ، عن طريق الأستاذ رابع ، بعض
مؤلفاتى إلى د . مراد ، الذى هاتفنى مرتين فى أسبوعين متتاليين من
جنيف ليَشكرنى على ذلك . وهو أدب عالٍ من أدب النفس أكد لى ما
كنت أسمعُه عنه ، ولكن تصادف للأسف أن كنت وزوجتى وابنتنا
الصغيرة فى القرية فى كلتا المَرتين فكان الذى يرد عليه ابْنى وبنتى
الكبيرين ، أما أنا فلم أَحظَ بِسَماعِ صوته .

ثم أرسلت إليه على عنوانه بسويسرا ، رداً على مكالمتيه ، خطاباً
تحدثت فيه ، ضمن ما تحدثت ، عن رسالته المذكورة ، وطلبت منه ، إذا

كان قد طبعها كتاباً ، أن يرسل لى نسخة منها ، وأخبرته أنني قد أفكر في ترجمتها أو كتابة شيء عنها . وقد تفضل الرجل مشكوراً فأرسل لى نسخة من رسالته ما إن وقعت في يدي وقرأت الخطاب الذي أرسله لى والذي وصلني في نفس يوم وصول الرسالة حتى بادرت إلى قراءتها . وكنت قد صرفت النظر عن ترجمتها لضخامتها ، إذ وجدت أنها تبلغ نحو أربعمئة وخمسين صفحة من القطع الكبير . وكانت قراءتي فيها ، أول ما وقعت في يدي ، لمجرد الاستكشاف ، لكنني ما إن قطعت نحو خمسها حتى انعقد عزمي على وضع دراسة عنها لما لقيته فيها من آراء غريبة وشديدة الخطورة تنسف السيرة النبوية نفساً ولا تقدم بدلاً عنها إلا سيرة أخرى كلها خيال في خيال . ويا ليت الأسباب التي ساقها الأستاذ الدكتور لتكذيب ابن إسحاق والتشكيك فيما كتبه من سيرة النبي عليه الصلاة والسلام كانت أسباباً وجيهة (ولا أقول : مقنعة) . لقد بدا لى أن د. مراد قد دخل الموضوع وفي ذهنه أن يحطم عمل ابن إسحاق ويأتى عليه من القواعد . وإذن فلم يكن الرجل مبالغاً حين وصف عمله هذا بأنه لو نُشر كاملاً فسوف يكون له وقع القنبلة النووية كما جاء في خطابه لى . وبالمناسبة فإن عنوان الدراسة التي بين يدي القارئ مُستوحى ، كما هو واضح ، من عبارة المؤلف هذه . وسوف أنشر ذلك الخطاب في ذيل هذه المقدمة حتى يكون القارئ الكريم على بينة من أمر الأستاذ الدكتور ودراسته من خلال قلمه هو نفسه أيضاً .

وتتلخص آراء د. مراد في أن ابن إسحاق قد خضع ، وهو يكتب
سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ، تحت ضغط أهوائه ، فقد ألفها بأمر
من الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور ، ولذلك كان حريصاً أشد
إلحرام عن إرضاء هذا الخليفة بتصوير بني هاشم وبني المطلب في
صوره وردية لا تشوبها أية شائبة ، على حين أنه قد عمل على أن تخرج
صوره "أمويين" خصوم بني هاشم ، في العاية من السوء والرداءة ،
كما أن ابن إسحاق لم ينس ، وهو يكتب السيرة ، أنه من أبناء المدينة
المنورة ، ومن ثم فقد نصر أهل المدينة على أهل مكة ، الذين قدمهم
للقارئ في صورة أبلسة ، على عكس الأولين ، الذين جعلهم ملائكة
أطهاراً مبرأين من كل عيب ، إذ قبلوا الإسلام دون تردد ونصروا رسوله
من أول وهلة ، بخلاف المكبيين ، الذين ظل صلى الله عليه وسلم بين
أظفرهم يدعوههم إلى دين الله فلا يلتفتي منهم إلا النكذوب والأذى والتأمر
على حياته وتعذيب أتباعه . وهذا كله عند الأستاذ الدكتور خطأ في
خطأ وكذب في كذب . كذلك لم يعب عن بال ابن إسحاق ، فيما
يقول د. مراد ، أن خالد بن الوليد قد سبى جده يساراً أثناء فتح فارس ،
ولذلك عمل على تشويه الصورة التي صورها لأبيه الوليد بن المغيرة
انتقاماً منه ، وكذلك تشويه الحلفاء الثلاثة الأوائل الذين تم فتح بلاد
فارس في عهدهم .

وعند د. مراد أنه لا عند الغضب ولا أبو طالب كانا سيدي قومهما ،

وأن جذ الرسول لم يكن متدينًا بدين إبراهيم في يوم من الأيام ، وأن مسألة قسّمه بأن يضحى بأحد أبنائه إنما هي قصة مختلفة أُريد بها أن تكون محاكاة لقصة الرؤيا التي رأى فيها إبراهيم عليه السلام أنه يذبح ابنه ، وأن أبا طالب لم يقمّ لا هو ولا بنو هاشم بحماية النبي عليه السلام بل كانوا إلبًا عليه مع الكفار ، وأنهم هم المقصودون بـ « أصحاب الأخدود » في سورة « البروج » ، وكان زعيمهم في ذلك عم الرسول الآخر (عبد العزى) ، الذي لقّب بـ « أبى لهب » لذلك الله .

والأستاذ الدكتور يرفض رفضًا باتًا قاطعًا ما تذكره كتب السيرة عن فترة الاستخفاء التي كانت في بداية الدعوة والتي كان الرسول عليه السلام يبلغ فيها سرًا ما ينزل عليه من الوحي ، مقتصرًا في ذلك على من يطعن إليهم من الأقارب والأصدقاء . ذلك أنه يرى أن الرسول لم يكن بحاجة إلى هذه السرية لأنه لم يكن يخشى شيئًا ولا أحدًا ، وكان الله يحميه في كل خطوة يخطوها ، كما كان الكفار يرهّبونه لما يحيط به من جلال الوحي والاتصال بالسماء ، حتى لقد كان يبدو لهم كأنهم خارقا ، أو كما يسمّى بلغة هذه الأيام « سورمان : Surhumain » .

كذلك يؤكد الأستاذ الدكتور أن المسلمين لم يهاجروا إلى الحبشة بل نفّوا إليها نفيا : نفتهم قريش ، واشتركت معها في هذا الجرم الشنيع بنو هاشم وبنو المطلب بعد الانشقاق مع بعض السلطات المحلية في بلاد النجاشي على أن يوضعوا بمجرد وصولهم في معسكرات اعتقال يسمّون

فيها صنوف العذاب . أما قصة جعفر ومثوله أمام الجاشي ورجال دينه
ومحاجته لرسولهم قريش في أمور الإسلام والنصرانية فلا أساس لها من
الصدق ، بل هي أسلوب من الأساليب التي لجأ إليها ابن إسحاق
لتبويض وجه الهاشميين ، الذين ينتمى إليهم العباسيون والذين كان
جعفر بن أبي طالب واحدا منهم ، فاخترع له ابن إسحاق هذه الحكاية
ليظهره بمظهر البطل الشجاع الذي يتحدى عقيدة أهل البلاد في بلاد
ملكها نفسه ويدخل ذلك الملك في الإسلام .

وما يكذبه الدكتور مراد أيضا رحلة النبي إلى الطائف ، ففي رأيه أنه
لم يكن من الممكن قيام الرسول بها ، لأنه لم يكن ليغامر بتعرض نفسه
طوال الطريق من مكة إلى هناك لمؤامرات الكفار ، الذين كانوا يعملون
بكل جهدهم على اغتياله والتخلص منه . وبطبيعة الحال فإنه يرفض ما
قيل عن اللقاء الذي تم بينه صلى الله عليه وسلم وعدائهم الغلام
النصراني لعنة وشيئة ابن ربيعة في بستانهما بتلك البلدة

وبالمثل فلا صحة ، عند الأستاذ الدكتور ، لما يسمى ببغية العقبة ،
التي لا نعدوان أن نكونوا احتراعا من احتراعات ابن إسحاق الكثيرة
قصيدة به تمجيد البشيريين ، الذين يقول د. مراد عنهم إنهم ليسوا هم
وحدهم الأنصار ولا كلهم أيضا ، إذ الأنصار عددهم كل من نصروا
الإسلام ، وهؤلاء كثيرون لا يشكل أهل يثرب إلا جزءا ضئيلا منهم
كما أن يثرب قد شهدت حوادث تعذيب لمسلميها لا تغل عددا ولا

ضراوة عما لقيه مسلمو مكة من إبداعات وهن . ثم يضيف المؤلف أنه كانت هناك هجرات أخرى إلى مناطق الجزيرة العربية المختلفة انتشرت فيها الدعوة الإسلامية خارج مكة قبل الهجرة للمدينة .

هذه أهم الحطوط العامة لما جاء في رسالة الأستاذ الدكتور ، وسوف يطلع انقارئ الكريم في الكتاب الذي بين يديه على المزيد والمزيد مما هو في السهامة ليس إلا جزءا مما قاله المؤلف في رسالته ، وعنوانها بالفرنسية ' La Biographie du Prophète d'Ibn Ishâq / Ibn Hishâm (Sîra) - Période Mekkoise Analyse Critique du Texte "

وكان المشرف عليها هو د. علي مراد الجزائري الأصل ونوى الأستاذ الدكتور أن يتابع دراسته للسيرة في رسالة أخرى سجلها في كلية الآداب (بجامعة جنيف) ، التي كان يشتغل بها أستاذا ، وذلك عن الفترة المدنية في سيرة ابن إسحاق . والحق أنني قد أصابني ، وأنا أكتب هذه الدراسة الحالية بل قبل أن أمسك بالقلم وأحط فيها حرفا ، حيرة شديدة ، إذ لم أكن أتوقع أن يكون كلام د مراد عن ابن إسحاق وكتابه عن سيرة الرسول عليه السلام بهذا الظلم القاسي والتحكم الذي لا مسوغ له على الإطلاق من وجهه نظري . وعندما أبدت له قبل ذلك رغبتي في الاطلاع على رسالته وترجمتها أو كتابة شيء عنها لم يدر بحدتي قط أنني سأقف موقف المخالف بل المخطئ لكل ما جاء فيها أو لمعظمه على الأقل . كذلك فإن ما سمعته عن تهذيبه برمائه شخصيه

وما رأيته من تصرفاته الراقية لم يشجّعنى على أن أتخذ هذا الموقف . بيد أنى حسمت الأمر بأن قلت لنفسى : إن الرجل لم يتردد فى أن يقول عن ابن إسحاق و « سيرته » ما قال ، فلم أخرج أنا من أن أقول فى رسالته هو ما أعتقد أنه الحق والصواب ؟ بيد أنى لا بد أن أصرح القارئ بأن شيئا غير قليل من التخرج لا يزال عالقا بنفسى رغم فراغى من بحثى . ولكن الرجل قد طلب منى المشورة ، وهأنذا أؤذيها بكل أمانة فى هذه الدراسة التى هى فى الحقيقة بمثابة « خطاب مفتوح » له . ورجائى ألا يترك ما كتبته أنرا شيئا فى نفسه بعد أن لم أَلْ جهدا فى إلجام قلمى وتلطيف حديثه .

والآن أحلّى بين القارئ والدراسة التى كتبته عن الرسالة المذكورة ، ولكن قبل ذلك سوف أطلعه ، كما وعدته ، على نص الخطاب الذى أرسله الأستاذ المؤلف إلى حتى يكون على بينة من أمره وأمر حواسته من خلال كلامه هو أيضا . وسوف يرى القارئ الكريم ، عند قراءته لهذا الخطاب الجميل المملوء بروح المودة الحلوة والصراحة النقية والتواضع الكبير ، سرّ الحيرة التى لا أزال أشعر بها . ولو كان الأمر أمر مسألة شخصية ما خططت حرفا من البحث الذى بين يديه ، ولكنى أخاف إن سكّ أن أسأل عن سكوتى فى أمر خطير كهذا . وليعذرى القارئ ، وليعذرى قبله الأستاذ الدكتور ، الذى رددت عليه وأنا متألم ومرتبك أشد الأثم والارتباك ، والذى أحسب أنه سيقدّر موقعى . وهذا هو نص خطابه بعد حذف فقرتين منه لما فىهما من خصوصية تتعلق بسيادته :

بسم الله الرحمن الرحيم

جيف صباح الأربعاء ٢ ديسمبر ١٩٩٨م

سيد الأستاذ الدكتور / إبراهيم عوض

تحية طيبة وبعد ، فأشكرك خالص الشكر على إهدائي مجموعة من كتبك وعلى خطابك الرقيق المؤرخ في ١١/٢٥/١٩٩٨م الذي وصلني أمس ، وعلى عرضك الكريم بترجمة ، سألتني أو كتابة شيء عنها وسأرسل نسخة من هذه الرسالة على حدة . وكان عدي مشروع لترجمة الرسالة بمعنى إلى العربية ، وعالجت ذلك بالفعل تحت إلحاح المستشار رابع وترجمت منها ومن ملخصها الذي قدمته إلى هيئة المناقشة صفحات ، ولكن ترجمتي لم تعجني ، ووجدت أبي عاجز عن المضي فيها حتى النهاية ، فصررت النظر عنها وفصلت أن أحول مادتها إلى مقالات أحاول أن أنشرها في المجلات المصرية ثم أجمعها فيما بعد ، إن أمكن ، في شكل كتاب . وبدأت بإرسال مقال عنوانه « سيرة ابن هشام هل أنصفت الحقيقة ؟ » إلى مجلة « الهلال » ، التي كانت قد نشرت لي أشياء في الماضي ، فنشرتها في عدد يناير من هذا العام ، أي بعد ثلاثة أشهر من مناقشة الرسالة . وفي عدد مايو من المجلة ذاتها ظهر مقال للدكتور عوضين الأستاذ بكلية اللغة العربية بجامعة المنصورة يتقد فيه ما جاء بمقالتي ، فأرسلت للمجلة مقالا أرد فيه عليه نشر في عدد يوليو ثم أرسلت لـ « الهلال » مقالا آخر بعنوان « انقطة المكبة » (التي

هي موضوع الرسالة) : هزيمة أم نصر ٢ « نشرته المجلة مع حذف ١٥ سطرا من الخاتمة كنت أراها مهمة . وقد أرسلت لـ « الهلال » أخيرا ، منذ عشرين يوما ، مقالا عن « انتشار الإسلام خارج مكة » لا أدري ما إذا كانت ستشره ومتى .

ونظرا إلى أنني أعلم من تجربة سابقة أن مجلة « الهلال » لا تحب نشر مقالات متتابعة عن موضوع واحد فقد رجعت إلى الدكتور محمد عناني الأستاذ بجامعة القاهرة الذي كنت قد تعرفت إليه في جيبف (وكان قد ساعدني في نشر كتاب « الإسلام المعاصر » وأعاد نشر ترجمتي لمسرحية « المأساة الإمبريالية » في مجلة المسرح) أسأله النصيحة عن المجلة التي يمكن أن تقبل سلسلة من مقالتي عن الفترة المكية ، وأرسلت له كنموذج مقالا عن عبد المطلب ، وآخر عن أبي لهب ، وآخر عن عليّ وجعفر وحزمة . وقد علمت منه هاتفا أنه عرض المشروع على الدكتورة فاطمة نصر رئيسة تحرير مجلة « سطور » ، وأنا في انتظار النتيجة .

وميزة المقالات في نظري أنها تقدم الاستنتاجات التي قادني إليها البحث (وهي استنتاجات تقلب المفاهيم التي استقرت في موضوع المسيرة على مدى ١٢ قرنا رأسا على عقب ، وسنكون بالتالي عسيرة الهضم عند نفر كثير من الناس) على جرعات بدلا من أن يكون لها وقع القنبلة النووية إذا قُدِّمَتْ في رسالة أو كتاب واحد ، وأني أستطيع

من خلالها أن أتعرف على ردود الفعل من الجهات الدينية ومن القراء العاديين وأن أرد على اعتراضاتهم المحتملة أولاً بأول كما رددت على اعتراضات الدكتور عوضين وعلى أساس ردود الفعل المذكورة أستطيع أيضاً أن أقدر ما إذا كان من المستحب أن أمضي في دراسة سيرة ابن هشام على نفس المنهج أم أعذل عنها أو أعذل مسهجي ، فقد سجلت بالفعل في مارس الماضي رسالة عن القسرة المدنية في كلية الآداب بجامعة جنيف (التي كنت أساندا فيها) . وقد احترت في هذه الرسالة ، كما ستري ، أن يكون مرجعي الوحيد هو القرآن وأنا أعرف أن المأخذ الرئيسى الذى سيؤخذ علىّ هو كبرى لم أرجع إلى ما جاء بكتب الحديث ، ولكنى نعمدت هذا منذ البداية لأن كتب الحديث بغيرها عويط أولاً ، ثم لأن من اعتمدوا على كتب الحديث ضمن مراجعهم ، أى كل من كتبوا فى السيرة حتى الآن ، « يلغوا » كلام ابن إسحاق كما هو ولم يدركوا ما فيه من مخالفة كبيرة للقرآن حكاية فترة الاستحفاء ، وحكاية حماية بنى عبد المطلب للرسول (ص) وحكاية بيعة العقبة الثانية (بيعة الحرب) . إلخ ونحن نعرف أن الحديث إذا حالف القرآن كانت العبرة بالقرآن وأنا مع ذلك لست متصلاً ، كما أننى ، كما قلت فى خاتمة بحثى ، لم أكن فى الرسالة أكتب السيرة بل كنت أحلل سيرة ابن هشام تحليلاً نقدياً ، وأعترف بأن بعض النتائج التى توصلت إليها تختمل الخطأ .

ويهمنى جدا في هذا الصدد أن أعرف رأيك في هذه الرسالة ، فقد
 تبين من كتبك التي تفضلت بإهدائها لى أنك بحالة وناقد طويل الباع
 ممن يمتصون ويفحصون وراء الحقيقة ، ولا تكتفى بالآراء السطحية .
 وقد أعجبنى أيضاً في كتاباتك ، بهذه المناسبة ، ثقافتك العربية
 الواسعة (الأمر الذي لم يتح لى للأسف) ، وغيرتك على الإسلام ،
 واختيارك الموضوعات الصعبة وارتباكك الطرق الرعرة وفهمك السليم ،
 بالإضافة إلى قدراتك اللغوية وفي مجموعة كتبك أكثر من شيء
 يتصل بيحني عن السيرة . وقد يحيل إليك من قراءة رسالتي أنى أردت
 آراء مرجليوث في الشعر الإسلامي (علما بأنى لم أقرأ لمرجليوث إلا ما
 ورد عنه في كتاب هيكل عن « حياة محمد ») ، فإنى أعتقد أن أكثر
 ما ورد في السيرة من شعر موضوع في بداية العصر العباسي . ولكن هذا
 غير صحيح ، فإنى أرى أن شعرا إسلاميا صحيحا قبل في عهد الرسول
 (ص) ، ولكن هذا الشعر لم يرد في سيرة ابن هشام بل أحفي لأغراض
 سياسية . وكتابك عن « الرعة الصرائية في قاموس المسجد » كان
 يمكن أن يسعد غاية السعادة صديقا لى في جيف اسمه الدكتور
 زكى على كان يقول نفس الشيء . ولكنه الآن ومنذ أكثر من عام في
 مستشفى المسنين ، وهو غير قادر على القراءة . ومع ذلك سأخذ كتابك
 معى في زيارتي القادمة له . وكان يودى أن يكون لى علمك بالشعر
 الإسلامى والأموى والعباسى لأحكم ، من وجهة النظر الأسلوبية ، على
 ما ورد بسيرة ابن هشام من شعر بدلا من الاكتفاء بنقده من ناحية
 الموضوع .

وقد أعجبتني أيضاً قدراتك على الترجمة ، وأكون شاكراً لو وافيتني
بكتابك عن الترجمة الإنجليزية لأقرأه أولاً ثم لأعطيهِ للمرسل الذي حل
مجلي في رئاسة القسم العربي بمعهد الترجمة والترجمة الفورية بجامعة
جيفرسون ومن الجائز أن يطلب منه نسخاً للفظلة

هذا ، وقد سجلت مد نحو ٢٥ سنة موضوع رسالة دكتوراه دولة
في جامعة جريويل بفريسا عن « برنارد شو والإسلام » ، وإذا أعطاني
الله العمر فسأعد هذه الرسالة بعد إنجاز رسائتي الحالية عن الفترة
المدنية وقد اكتشفت أن برنارد شو ، الذي اتهم ظلماً بأنه عدو للإسلام
لأنه وصف محمداً بأنه سائق جمال في مسرحية « القديسة جان » ،
عاشق للرسول (ص) وللإسلام ، وذكرت ذلك في كتاب صغير صدر
مشوهاً عن دار الهلال .

جسماً تقبل حالى مودنى وشكرى وتقديرى ، ودُم للمخلص
محمود مراد .

والآن ، وبعد أن اطّلع القارئ الكريم على الخطاب الممتع الرقيق
الذى تفصل د مراد بإرساله إلّى ووصفى فيه بما لا أرى أبى أستحقه ،
ننتقل إلى مناقشة أفكاره التى تتضمنها دراسته المذكورة .

(١)

أولا وقبل كل شيء هل يمكن أن يكون ابن إسحاق بالصورة التي قدمها لنا د. مراد ، ألا وهي صورة الرجل الذي لا يبالي بالحق ولا يتحرى الصدق والموضوعية فيما كتب من سيرة النبي عليه الصلاة والسلام بل كان يضع نصب عينيه ممالأة للخليفة العباسي أبي جعفر المنصور ، الذي كلّمه بكتابة تاريخ للعالم ثم لما رآه أضخم مما ينبغي عاد فطلب منه أن يختصره لابنه للهدى فكانت السيرة التي بين أيدينا ^(١) ، بالإضافة إلى رغبته في الانتقام من الخلفاء الراشدين الثلاثة الأوائل الذين قُتِلت بلاد فارس في عهدهم وأسر أبوه علي يد أحد قوادهم ، وكذلك الانتقام من الأمويين ، الذين كانوا يقربون العرب ومعاملون الفرس معاملة الكراهية والازدراء ، فضلا عن حمسه للإعلاء من شأن أهل المدينة ، الذين ولد ونما وترعرع بينهم ، على حساب القرشيين سكان مكة ؟ وهل من المستحيل ، كما يقول د. مراد ، أن يفكر أحد

(١) ادعى مثل هذه الدعوى من قبل للشرق ولبن مور ، فقد اتهم ابن إسحاق بممالأة العباسيين ، الذين كان يستغل (كما يقول) برعائتهم فعمل من ثم على تمجيد أسلامهم وتشرية أسلاف الأمويين أعدائهم ، وذلك بتضخيم وقائع محاربتهم للدعوة في عهدنا الأول (William Muir, The Life of Mohammad, John Grant, Edinburgh, 1912, p. XXXIX) .
وعن قال هذا الكلام أيضا من قبل الدكتور سهيل زكار (انظر مقدمته لكتاب « السيرة والمغازي » لابن إسحاق ، بتحقيقه / دار الفكر / ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٩ م / ١٣ - ١٤) . وما هو ذا الدكتور محمود علي مراد يكرر هذا الادعاء .

من المؤرخين ، خلال عصر تحولٍ وانقلابٍ كالعصر العباسي ، في كتابة تاريخ موضوعي يفتد فيه دعاوى النظام الجديد وينصف رموز النظام الذي انهار رولي ؟ إن الجواب بـ « نعم » على هذا السؤال الأخير لا يمكن أن يكون له من معنى إلا أن معظم التاريخ كذب في كذب ما دام مستحيلا على المؤرخين أن يفكروا في كتابة أي شيء يتعارض وما يقوله النظام القائم ، وإلا أن البشر كلهم تقريرا سواء في الجن والنفاق والحرص الدنيء على العيش والمنفعة الشخصية . فهل من العدل أن ننظر إلى الإنسانية في كل العصور هذه النظرة المشائمة السوداء ؟ فإذا أضفنا إلى ذلك أنه لا توجد صلة قوية بين السيرة النبوية والظروف التاريخية والشخصية التي كتب فيها ابن إسحاق سيرته تبين لنا جليا أن دعاوى د. مراد وتأكيدهاته ليس لها من أساس تنهض عليه كما سنرى بعد قليل .

وانحق أن السيرة التي كتبها ابن إسحاق تحلو من تلك الهابة المزعومة لبنى العباس وأهل المدينة . وكيف يمكن أن يحايى صاحب السيرة العباسيين والأنصار وهو لم يكن يوما من شيعة الأولين ولا كان من موالى الأخيرين ؟ لقد أثهم ابن إسحاق بالتشيع ، والتشيع شيء ، وموالاة بني العباس شيء آخر . لقد أشاع العباسيون أثناء ثورتهم على بني أمية أنهم إنما يدافعون عن حق علي ودريته في الخلافة ، لكنهم ما إن وصلوا إلى سدة الحكم حتى انقلبوا على ألباء عمومتهم ونكّلوا بهم تنكيلا بلغ في بعض الأحيان مدى لم يسعه في العصر الأموي ، وقمعوا ثورات الطالبين عليهم بعنف وحشي وأطاروا رقابا علوية كثيرة ، فكيف

بعد ذلك كله يقال إن ابن إسحاق كان في سيرته محايا للعباسيين ؟
وكذلك كيف يقال إن ابن إسحاق إنما أراد أن يُعَلِّي من شأن أهل
المدينة ويخفف بالمكيين الأرض ، وقد كان مولى لقبيلة قرشية هي قبيلة
عبد الله بن قيس بن محمرة بن المطلب بن عبد مناف القرشي ؟ ولذلك
قيل عن أبيه يسار إنه عطشى بالولاء ، وإن كان مديبا بالمقام ^(١) وحتى
من ناحية الإقامة نجد أن ابن إسحاق لم يستمر في المدينة بل سرعان ما
تركها ، عقب بلوغة العشرين ، إلى مصر . وإذا كان قد عاد إليها بعد
ذلك فقد غادرها مرة ثانية إلى العراق متقلبا بين مدينتي الختلفة إلى أن
استقر في بغداد حيث مات سنة ١٥٠ هـ أو بعدها بقليل ^(٢) . ولو كان
مرتبطا بالمدينة هذا الارتباط الذي تريد أن توهمنا به سطور د . مراد ما
استطاع على فراقها صبورا . وفوق هذا فإن التنقل بين بلاد العالم
الإسلامي كان هو الطابع العام لحياة العلماء والأدباء في ذلك العصر ،
وهذا من شأنه أن يضعف من تعصبهم . ثم إنني لا أدري كيف فات د .
مراد أن عصبية ابن إسحاق المدنية المزعومة تتناقض مع ممالأته للعباسيين .
لغيسوا من القرشيين أهل مكة الذين يقول إن ابن إسحاق في « سيرته »
قد نصر أهل المدينة عليهم ورفع من شأنهم على حسابهم ؟

(١) انظر مقدمة طه عبد الرؤوف سعد لـ « السيرة النبوية » لابن هشام / مكتبة الكليات
الأزهرية / ١ / ج ، وكذلك ترجمة ألفرد جيوم لسيرة ابن هشام " The Life
of Muhammad ", Oxford University Press, 1980, p. XIIIV

(2) Guillaume, The Life of Muhammad, pp. XIV - XIV, and
Mahmoud Aly Mourad, La Biographie du Prophète d' Ibn
Ishâq / Ibn Hishâm - Période Mekkoise : Analyse Critique
du Texte, 1996 - 1997 , p. 10 .

وإذا كان يَسَارُ جَدُّه قد وقع في السَّبْيِ على أيدي جنود خالد بن الوليد (في السنة الثانية عشرة للهجرة في خلافة الصديق) فينبغي ألا يعزب عن بالنا أنه كان آنذاك واحداً من مساجين كسرى في عيب الثمر العراقية ^(١). ومعنى ذلك أن خالدنا ، رغم سبيهِ إياه ، قد حرره بذلك السبي من السجن ، علالة على أنه ما إن دخل الإسلام حتى أعتقه مواليه وأصبح حراً طليقاً مرة أخرى . وابن إسحاق ، على أية حال ، مسلم محلي لم تعلق بإسلامه أية ريبة ، ولم يعرف عنه أنه شعري على أي نحو من الأنحاء ، فمن أين تأتيه البغضاء لخالد أو لأحد من الحلفاء الراشدين الثلاثة الأوائل ؟

ثم إن أحداً من العلماء لم يتهم ابن إسحاق بالكذب أو باحتراع حوادث السيرة من عده ، اللهم إلا مالك بن أنس ، الذي قال في مودة غضبه إنه : دجال من الدجاجلة يروي عن اليهود ، وذلك بسبب تشكيك ابن إسحاق في نسب مالك وقوله إنه موالي وليس شعري كما يقول هو عن نفسه . ومع ذلك فقد عاد مالك إلى مودة ابن إسحاق فودعه حينما ترك المدينة إلى العراق أكرم وداع ، إذ أعطاه خمسين ديناراً ونصف ثمره من ثمر ذلك العام ^(٢) . ومثل هذا الحلاف من الأمور التي تقع في حياة الناس كثيراً ، ورد فعل مالك هو رد العصب الفاسد فلا ينبغي الوقوف عنده طويلاً ، وإلا فماداً في أن ينقل ابن إسحاق عن أولاد اليهود ، وقد أسلموا ، بعض أحداث السيرة ؟ إن ذلك

(1) Guillaume, The Life of Muhammad, p. XIIV .

(٢) سيرة ابن هشام ١ - ٢ - ك (من مقدمة المحقق) .

بما يجب أن يُحسب لابن إسحاق لا عليه ، إذ هو دليل حرص على رغبته في جمع أكبر عدد من الشهادات المختلفة على الحادثة الواحدة ، وبخاصة أنه كان يذكر أسماء رواته بما فيهم هؤلاء المسلمون ذرو الأصول اليهودية مما يعطى للقارئ العرصمة للحكم بنفسه على الرواة الذين استمد منهم ابن إسحاق أخبار سيرته . أما إذا كان أحد قد وصفه بالتشيع^(١) ، وإن كنت لا أجد في السيرة دليلاً على تشييعه هذا ، فقلت أرى ذلك موجبا لبذ عمله للمظيم في مجال السيرة النبوية ، إذ ليست العيرة بانجهايات الشخص السياسية بل بأمانته وصدقه ، وإلا فيكاد يكون من المستحيل أن نثر على أحد بين العلماء ليس له انتماء سياسى أو مذهبى . وقد اتضح لنا من خلال تحليلنا لسيرة ابن إسحاق ، فى ضوء اتهامات د. محمود مراد له بمالأة العباسيين وتزييف حوادث السيرة من أجل إرضائهم والتقرب إليهم ، أنه لا يوجد فيها ما يدل على صحة هذا الاتهام . وعلى أية حال فقد أجاب ابن سيد الناس على هذه التهمة قائلاً إنه : ما رمى به ابن إسحاق من القدر والتشيع لا يوجب رد روايته ولا يوقع فيها كبير وهن^(٢)

أما على الناحية الأخرى فعندما شهدنا متعددة من علماء مختلفين بمكانة ابن إسحاق العلمية العالية وأهليته للثقة . فابن شهاب الزهري يقول : « من أراد المعازى فعليه بابن إسحاق » ، وللشافعى فيه شهادة مشابهة ، كما وصفه عالم آخر بأنه « أمير المؤمنين » فى الحديث ،

(١) المرجع السابق / ١

(٢) نفس المرجع والصفحة .

واحتج عدد من كبار علماء الحديث برواياته في ذلك الميدان ووثقوه ...
وهكذا . وفوق ذلك فعالمتنا ، رضى الله عنه ، من بيت علم ، إذ كان
أبوه وأحواه من رواة الحديث مثله (١)

والذى يرجع إلى « عيون الأثر » لابن سيد الناس سوف يجد ما
حظي به ابن إسحاق من توثيق ومدح لحلقه وعلمه على ألسنة العلماء
من معاصريه ومن جاءوا بعده على السواء ، وكذلك الرد القوي على ما
وجه إليه من انتقادات (٢) وقد نقل كل من طه عبد الرؤوف سعد ود.
فاروق حمادة ومحمد سرور بن نايف زين العابدين من ذلك أشياء :
الأول في مقدمته لـ « سيرة ابن هشام » (٣) ، والثاني في دراسته
عن « مصادر السنة النبوية وتفرعها » (٤) ، والثالث في كتابه « دراسات
في السيرة النبوية » (٥) ، وهو نفسه ما صنعه المستشرق البريطاني ألفريد
جيبوم في مقدمة ترجمته لـ « سيرة ابن هشام » كما ذكر ذلك
المستشرق أن ابن إسحاق إنما تعرض للهجوم من جانب بعض العلماء
بسبب كتاب له مفقود بعنوان « السَّن » لا بسبب كتابه عن سيرة النبي
الذى لا يحوى (كما قال) إلا حديثاً أو اثنين من أحاديث النبي عليه

(١) المرجع السابق / ج - ط .

(٢) عيون الأثر / تحقيق محمد العيد الخطراوى ومحمى الدين متو / مكتبة التراث
بالمدينة المنورة ودار ابن كثير بدمشق وبيروت / ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م / ٤٤ - ٦٧

(٣) سيرة ابن هشام / ١ / ط - ك .

(٤) مصادر السنة النبوية وتفرعها / دار الثقافة / ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م / ٤٠ - ٥٣ .

(٥) دراسات في السيرة النبوية / طه / دار الأرقم / برمنجهام / ١٤١٤هـ -
١٩٩٣م / ٨٦ - ٩٠ .

السلام بتعارضان مع ما فى كتب الحديث الأخرى . وقد وصفه ذلك
المستشرق بالأمانة والصدق والإخلاص فى جمع كل ما يتعلق بالرسول
عليه الصلاة والسلام^(١) .

هذا عن ابن إسحاق نفسه ، فمادا عن « سيرته » ؟ ترى هل فيها ما
يمضد كلامنا هذا ؟ أم هل فيها ما يؤكد دعوى د مراد ؟ إن اعتراض
الأستاذ الدكتور فى هذا الصدد يتلخص فى أن ابن إسحاق قد جعل من
الهجرة النبوية إلى المدينة منعطفًا تاريخيًا تحوّل عنده أمر الدعوة الإسلامية
من الفشل فى مكة إلى الانتصار والانطلاق والازدهار فى المدينة :
فالمكيون قد رفعوا فى سبيل هذه الدعوة موقفًا متصلًا عنيفًا فلم يؤمن
منهم إلا القليلون ، إذ آذوا المسلمين بغية فقتلهم عن دينهم حتى
اضطروهم للهجرة إلى الحبشة ثم إلى المدينة ، على حين أن أهل المدينة
قد قبلوا الإسلام قبولاً سهلاً سمحاً منذ بدء الأمر ولم سمع بحوادث
تعذيب بينهم لأنهم قد دخلوا الإسلام جميعاً . أى أن الصورة التى
رسمها لهم ابن إسحاق هى صورة وردية بدوّ فيها ملائكة فى مواجهة
أهل مكة للشياطين . فهل فيما كتبه ابن إسحاق فى « سيرته » ما
يصدق هذا الادعاء ؟

الواقع أن ابن إسحاق قد تكلم مراراً وتكراراً عن الأدب الذى كان
القرشيون يصوره على من يتابع محمداً منهم على ديه أى أن الذين
كانوا يمثّلونهم من أهل مكة ، ومعنى هذا أن إيمان هؤلاء المكّيين قد

(1) Guilaume, The Life of Muhammad, p. XXXIV - XXXVIII

كان من القوة بحيث ساعدتهم على تحمل ألوان الأذى العظيمة التي كانت تهاجم عليهم من كل جانب . وعلى هذا فإذا كان ابن إسحاق قد أبرر قسوة أئمة فريق من أهل مكة فقد أبرز أيضا عظيمة إيمان الفريق الآخر ، هذا الفريق الذي لم يرهبه شتم ولا سحرية ولا صرب ولا مقاطعة ولا قتل ... إلى آخر صنوف الإيذاء والتعذيب الرهيبة التي كان القرشيون المشركون يفتنون في إيقاعها بأفرادهم ، والذي أثر أن يترك وطنه ويضرب في أرض الله المجهولة عبر البحر أو خلف الصحراء المترامية غير معكّر في شيء إلا في النجاة بدينه كي يعوز برضوان الله فكيف بالله يصحّ اتهام ابن إسحاق بأنه ضاعل من شأن المكيين ؟ هل كان عليه أن يزعم الحقيقة ويكذب القرآن الذي نُجِّلَ آياته طوال العهد المكيّ بتهديد مشركي مكة بالصاحّة والطامة الكبرى والحاقّة والقارعة والآفة والواقعة والزلزلة والهاوية والحطمة واللّطى والجحيم وتخديرهم من أن يحقّ بهم ما حاق بالأمم الكافرة من قبلهم لصدهم عن سبيل الله ولإذاتهم الرسول والمسلمين ؟ إن الأستاذ الدكتور يؤكد أن عدد من دخلوا الإسلام في مكة لم يكن قليلا البتة وأنه لا رجحان لمسلمي المدينة في هذا الصدد ، ولكنه فاتّه قول الله عز وجلّ للمسلمين بعد الهجرة بذكرهم بنعمته تعالى عليهم وأنه نقلهم من الضعف والدلة إلى معارج العز والقوة : ﴿ واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون تحافون أن يحطّظكم الناس ما أراكم وأيدكم ينصروه وورقكم من الطيبات لعلكم تشكروا ﴾ (١) وفي هذا أبلغ ردّ وأقواء على الرعم بأن المسلمين هم الذين حموا الرسول عليه السلام لا بى هاشم . ذلك أن حال هؤلاء

المسلمين ، كما توضحه هذه الآية القرآنية ، لا يساعد أبداً على مثل ذلك الادعاء ، علاوة على أنه ما من كتاب من كتب السيرة والتاريخ الإسلامي ذَكَرَ ذلك ، وإلا فلم هاجر المسلمون المكثرون إلى الحبشة مرتين ثم إلى المدينة بعد ذلك إذا كانوا من القوة والمعة بهذه الدرجة ؟ ومن طريف الأمر أن الأستاذ الدكتور يدعى في ذات الوقت أن التعذيب في مكة كان عاماً شاملاً وأقصى مما نقرؤه في سيرة ابن إسحاق ، حتى لقد أنكر أن يكون ذهاب المسلمين إلى الحبشة أو يثرب هجرة ، إذ أكد أن كفار مكة هم الذين نفّوا مواطنيهم المسلمين إلى الحبشة بعد الاتفاق مع بعض السلطات المحلية هناك على وضعهم في معسكرات اعتقال وتعذيبهم ، وأنهم أيضاً هم الذين أخرجوهم بعد هذا إلى يثرب لإخراجها .

ومن هنا أيضاً قوله إن الذي تولّى كِبَرُ الأحودود المذكور في سورة « البروج » هو أبو لهب ، وإن من عذبوا في هذا الأحودود هم مسلمو مكة على ما سيأتى تفصيله . وهو أمر محير ، إذ لا يعرف الإنسان ماذا يفعل أمام تلك المتناقضات التي يندمها بها الأستاذ الدكتور ! وبالمأساة فقد تكررت إشارة الأستاذ الدكتور في هذا السياق إلى الآيات الكريمة التي تتحدث عن أن الله هو الحامي الوحيد لرسوله ودينه وأن النصر لا يأتي إلا من عنده سبحانه . ويتخذ سيادته من ذلك برهاناً على أن بنى هاشم والأنصار ليسوا هم الذين دافعوا عن النبي عدوان قومه بل الله . ولا أدري كيف سبق إلى غلته أن مثل هذه الآيات الكريمة تؤدى إلى تلك النتيجة التي توصل إليها سيادته . إننا لا نشاح مثلاً في أن الله هو الرزاق ذو القوة المتين^(١) ، لكن هل معنى هذا أن الرزق إنما يهبط علينا

(١) كما جاء في الآية ٥٨ من سورة « الدُّرُجَات »

من « السماء » ، وبخاصة أن هناك آية أخرى تقصر وجود الرزق فيها^(١) وهل معنى قول الله جل شأنه لرسوله عقب انتصار بدر الساحق على المشركين : ﴿ فَلَمْ يَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ، وَما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾^(٢) أن يكذب وقائع التاريخ التي تفقأ العين ويذهب فردد أن المسلمين لم يفعلوا شيئاً في تلك المعركة سوى أنهم وقفوا يظفرون ويتمرجحون على رمي الله للمشركين وقتله إياهم ، فلم يرموهم بالسهام ولا قتلوهم بالسيوف ؟ إذن فما معنى الجهاد في سبيل الله يا ترى ؟ وما مغزى وعد الله المجاهدين بالجنة وطيباتها ؟

إن فهم الآيات على هذا الأسلوب الحرفي يُلقي التوصل بالأسباب ، وهو ما تستحيل الحياة معه ، وإلا فما الحكمة من تنظيم الكون على أساس قوانين مُحْكَمَةٍ إذا كانت هذه القوانين لا تقدم ولا تؤخر وكان الرزق والبصر والشفاء والشيخ والرؤى .. إلخ تأتيها من الله مباشرة دون مرور بوسائط البشر والأشياء ومنن الكون ؟ وعلى أية حال فما هو ذا القرآن نفسه يقول إن على المؤمنين أن يصبروا الله أولاً حتى ينصرهم هو . ﴿ يا أيها الذين آمنوا ، إن تصبروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾^(٣) ، كما بين الله سبحانه أن نصر الله للمسلمين على

(١) وهي الآية التي نقول: ﴿ وفي السماء رزقكم وما توعدون ﴾ (الداريات / ٣٢)

(٢) الأنفال / ١٧ .

(٣) محمد / ٧ .

الكافرين لا يتحقق إلا من خلال المسلمين أنفسهم : ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصَرِكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ (١) أو من خلال قوة من قوى الطبيعة أو الملائكة : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ (أَي عَلَى الْأَحْزَابِ) رِيحًا وَجُودًا لَمْ تَرَوْهَا ﴾ (٢) ، ﴿ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِكُمْ هَذَا يُخْذِلْكُمْ رَبُّكُمْ بِكُمْ بَخْمَةَ آلاَفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ (٣) ... وهكذا . لقد نص القرآن صراحة على أن أهل المدينة قد آووا الرسول والمهاجرين ونصروا الإسلام ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بِمَعْصَرٍ مِنْهُمْ ... ﴾ * ... ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ (٤)

وهل ينكر أحد أن الإسلام قد وجد مفسحاً واسعاً في المدينة لم يجهده في مكة ؟ إذن فلماذا هاجر الرسول والمسلمون من هذه إلى تلك إن كان الأمر كما يريد منا الدكتور مراد أن نعتقد ؟ لقد كان الإسلام ،

(١) التوبة / ١٤ . وما هي ذى كارين أرمسترونج تتحدث عن استعادة النبي بنور وجهه به حين طارده سمهاء الطائف ورموه بالحجارة فتقول إن : الاستعادة بالله لم يكن معناها أن محمداً كان قادراً على الاستماء عن حماية البشر ، فالقرآن يقول بوضوح وجلاء إن على المسلمين أن يبذلوا كل جهد بشري ممكن لرعاية أنفسهم .
﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (كارين أرمسترونج / سيرة النبي محمد / ترجمة د. فاطمة نصرود. محمد عيسى / ط ٢ / سطور / ١٩٩٨ م / ٢٠٧) .

(٢) الأحزاب / ٩ .

(٣) آل عمران / ١٢٤ .

(٤) الأنفال / ٧٢ - ٧٤ .

بشهادة القرآن ، مضيقاً عليه في مكة ، وكان المسلمون ضعفاء قليلين يحافون أن يتحلفهم الناس ، ولم يكن قد نزل الوحي بالإذن لهم برد عدوان المشركين عليهم بمثله ، إذ لم تكن الظروف مواتية لزول مثل ذلك الإذن الذي يحتاج إلى قوة ومعة لم تكونا متوفرتين لهم في مكة وهم أقلية متناثرة بين قبائلها ليس لها من الأمر من شيء ، لكنهم بعد أن آوهم الله إلى المدينة تغيرت الحال فأصبحت لهم دولة وحكومة ، وأصبح لهم جيش وسلاح ، وأذن لهم أن يردوا العدوان عليهم بمثله ويتصروا بعد ظلمهم ، وتسارعت حظا انتشار الإسلام ففتحت مكة ، التي أخرجته من أرضها ، وخضعت بلاد العرب كلها للإسلام ، ووقعت القبائل إلى المدينة تباع الرسل ﷺ ، وأرسل عليه السلام إلى ملوك الأرض من حوله يدعوهم إلى الدخول في دمه ... إلخ فإذا كان هذا كله قد حدث في المدينة فلماذا نصيق صدوراً بالمدينين وبحاول التقليل من شأنهم ومن إيمانهم وبصرهم للإسلام ؟ إن الشاء عليهم وتقدير حبه لله ورسوله وإبرار العون السبل الذي قدموه لإخوانهم المهاجرين والتضحيات التي بذلوها من أجل رفعة دينهم ليس معناه أبداً التصغير مما بذله مسلمو مكة من عون وتضحيات . من قال هذا ؟ وكيف يصح أن نفهم هذا من كلام ابن إسحاق ؟

على أن ابن إسحاق مع ذلك لم يصور المدينة وأهلها جميعاً بصورة وردية دائماً كما يقول الأستاذ الدكتور ، فهذا هو ذا يصف المدينة

على لسان عائشة رضى الله عنها بأنها لما قدمها الرسول كانت أرباً ببلاد الله من الحمى فأصاب أصحابه منها بلاءً وسقم ، فصرف الله ذلك عن نبيه ﷺ حتى لقد دعا رسول الله ربه أن يحبب إلى المهاجرين المدينة كما حُبب إليهم مكة^(١) . أى أن الله قد صرف بلاء المدينة بمركة الرسول عليه السلام ودعائه ، وهو ما يعنى أن الرسول هو صاحب الفضل عليها لا العكس كما أفاض ابن إسحاق فى الحديث عن الأعيب اليهود وسفالتهم وعذرهم ومؤامراتهم على الرسول والإسلام وحياتهم العظمى فى غررة الحديق ، وقد كان اليهود (كما معروف) يشكلون جزءاً ضخماً من سكان المدينة . وبمسئ الطريقة حصص صفحات طوالاً لأصدقائهم المنافقين استفاض فيها فى الحديث عن خبثهم وجبنهم وكفرهم المحبطين والخطر الذى كانوا يمثلونه بالنسبة للإسلام والمسلمين ومحاولات الاغتيال التى استهدفوا بها حياة الرسول الكريم . ولم يكن عدد هؤلاء المنافقين بالنسبة لسكان المدينة قليلاً ، وإلا ما كثرت الكلام عنهم فى القرآن وعن خطرهم . وقد كانت نسبة من انفصلوا مع ابن أبى راسٍ السفاق من جيش المسلمين الخارج للفاة المشركين فى عزرة أحد ورجعوا إلى المدينة دون اشتراك فى الحرب نسبة كبيرة وإن حكم القرآن عليهم لهو أشد من حكمه على المشركين ، إذ يضعهم فى الدرك الأسفل من النار كما جاء فى الآية ٤٥ من

(١) سيرة ابن هشام / ٢ / ١٦٩ - ١٧٠ .

سورة النساء . فهل بعد هذا يمكن أن يقال إن ابن إسحاق يحايي أهل المدينة بإطلاق على أهل مكة بإطلاق ؟

كذلك فإن الدين أبلوا البلاء الأعظم في بدر مثلاً ، على حسب ما جاء عند ابن إسحاق ، هم من المهاجرين . وبالمثل فإن معظم من كان يقيمهم الرسول على المدينة عند حروجه للفرار كانوا من المهاجرين . كما كان الذين هدموا الأوثان بعد فتح مكة كلهم من المكّيين ، وهم خالد وأبو سفيان والمغيرة بن شعبة . والذي جمع بالبأس في السنة التاسعة للهجرة واحد من أهل مكة هو أبو بكر ، والذي بلغ سورة براءة للناس في تلك المناسبة هو أيضاً واحد منهم ، وهو عليّ كرم الله وجهه . ولا ننس أيضاً حديث ابن إسحاق عن أبي عامر الراهب (البشري) وحققه وخيائته رغم أن ابنه حنظلة كان من أبطال المسلمين المخلصين ومات في غزوة أحد ، التي برز فيها على أشده عذر أبيه . وكذلك يسمى ألا يفوتنا ما قاله ابن إسحاق عن حسان بن ثابت الأنصاري شاعر الرسول من أنه كان أثناء غزوة الخندق محتماً بالحصص مع النساء والصبيان وأنه خاف أن ينزل للملاقاة الجاسوس اليهودي الذي كان يطيف بالمكان فنزلت عمه الرسول فقتلته بعمود من حديد^(١) ، علاوة على دوره هو وبعض الحزوح في حديث الإفك^(٢) . وقد سجل ابن إسحاق أيضاً رد الرسول عليه السلام على أحد الأنصار عندما قال

(١) المرجع السابق / ٣ / ١٣٦ - ١٣٧ .

(٢) السابق / ٣ / ١٩٠ ، ١٩٢ .

مستهيناً يقتلى للمشركين فى بدر : « والله إن لقينا إلا عجماء صلماً
 كالبُذْنِ المعقَّلة فتحرقناها » ، فقد تسم رسول الله ﷺ وأجابه بقوله :
 « أى ابن أخى ، أولئك الملائكة » (١) . كما سجل رد فعل الرسول
 صلوات الله وسلامه عليه تجاه ما يُلَمُّه عن سعد بن عبادَةَ الأنصارى من
 قوله ، وقد أعطاه راية الممنوح لدخول مكة من كداء : « اليوم يوم
 المُلغمة ! اليوم تُستحلُّ الحرمه ! » ، فقد أمر ﷺ علياً أن يسرع فيأخذ
 الراية منه ويكون هو الذى يدخل بها (٢) .

ويتهم د مراد ابن إسحاق بأنه قد عمل بالباطل على الغض من شأن
 الأمويين وإبراز محاسن الهاشميين ، إذ جعل بنى هاشم وبنى المطلب هم
 الذين حموا النبي عليه السلام فى مكة من بطش قومه ، بما يفيد أن
 الدعوة لم تكن لتقوم لها قائمة لولا هم . فهل هذا الاتهام صحيح ؟
 لنجعل سبيلنا إلى الجواب عن هذا السؤال هو النظر فى « السيرة »
 نفهمها لنرى مدى صدق هذه التهمة أو عدم صدقها . إننا ننظر فنرى أن
 سيد بنى هاشم (٣) ، رغم ما يرويه ابن إسحاق عن حمايته للنبي ووقوفه
 حائلاً بين قريش وإيذائها إياه ، قد ظل طول عمره كافراً فلم يدخل
 الإسلام قط ، بل لم ينطق بالشهادة مجرد مطلق حتى وهو فى رفقته

(١) السابق / ٣ / ١٤٣ .

(٢) السابق / ١ / ٢٦ .

(٣) وهو أبو طالب على ما يقول ابن إسحاق ، الذى يشكك فى كلامه ، فيما يخص
 هذه النقطة أيضاً ، الأستاذ الدكتور .

الأخير . يقول ابن إسحاق إن الرسول ، في آخر اجتماع له بزعماء قريش عند أبي طالب ، كرر عليهم كالعادة دعوة التوحيد ونبد الأوثان ، وإن أبا طالب ، بعد انصرافهم ، قال له : « والله ، يا ابن أخي ، ما رأيتك سألتهم شططا » ، وإن رسول الله قد طمع حينئذ في إسلام عمه فأخذ يحصه على التنفط بالشهادة حتى يستطيع أن يتشفع له يوم القيامة ، لكن أبا طالب اعتذر مخافة المعرة على نفسه وعلى أبنائه من بعده أن يقال إنه إنما تلفظ بها جزعا من الموت . وفي مشهد الاحتضار يحرك أبو طالب شفثيه ويصنئ إليه العباس بأذنيه ثم يقول لابن أخيه : « والله لقد قال أخي الكلمة التي أمرته أن يقولها » ، لكن إجابة رسول الله ﷺ سرعان ما تأتيه بامرة ، إذ قال في حسم : « لم أسمع »^(١) . ترى ما الذي كان يتحرج منه ابن إسحاق ما ظم لا يبالي بحق أو باطل وما دام همه ، كما يقول د. مراد ، هو لإرضاء السلطة العباسية ، فمنعه من إدخال أبي طالب ، عميد بني هاشم ، في الإسلام ؟ ليس المقصود هو الإعلاء من شأنهم على حساب بني أمية ؟ فكيف فاته أن يسجل لهم هذه النقطة الساحقة ؟ ثم نلحق إلى العباس ، الذي حلف أبا طالب في حماية النبي فيما هو واضح من بعض أحداث السيرة ، فتجد ابن إسحاق لا يذكر أنه دخل في الإسلام إلا عام الفتح ، أي في أواخر الدعوة الإسلامية حينما أسلمت قريش كلها تقريبا ومعهم أبو سفيان

(١) انظر « السيرة النبوية » لابن هشام ٢ / ٤٧ .

زعيم الأمويين ، مما وجه الفضل له ها ؟ ^(١) بل إن العباس ، عني ما يذكر ابن إسحاق ، قد استمات في الدفاع عن أبي سفيان في مواجهة عمر ، الذي أراد أن يقتله عشية المتح حينما ظفر به وهو مع العباس قبل أن يسلم ، قائلا له : « مهلا يا عمر ، فوالله أن لو كان من بني عدي بن كعب ^(٢) ما قُلتَ هذا ، ولكسك عرفت أنه من رجال بني عبد مناف » ^(٣) ومعنى هذا أن العباس يعدّ أباً سفيان واحداً من أهله نظراً إلى الجدّ البعيد الذي ينتسب كلاهما إليه ، فأين العصية هنا بهاشم على أمية ، وما هو ذا ابن إسحاق يجعل للعباس ^(٤) وأبا سفيان شيئاً واحداً ؟

(١) وحتى لو أخذنا بالرواية التي أوردها ابن إسحاق عن أبي رافع مولى النبي عليه السلام عند حديثه عن عزرة بدر من أن العباس كان مسلماً حينذاك ، فيسفي أن تنسب إلى بقية الرواية التي تقول إنه كان ذا مال كثير متعرق في قومه ، فكان يهاجم ويكره حلالهم (سيرة ابن هشام / ٢ / ٢١٠) ، إذ إن مغرى الكلام واضح ، وهو أن العباس قدّم الحسابات المالية على إعلان دخوله في الإسلام . وليس هذا مما يقال فيه إن ابن إسحاق إنما كان يمالئ به بني هاشم على حساب بني أمية . روى سيرة ابن إسحاق أيضاً أن العباس قد اشترك مع قريش في حربها ضد المسلمين بدر (ابن هشام / ٢ / ١٩٧) .

(٢) قبيلة عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

(٣) سيرة ابن هشام / ٤ / ٣٢ - ٣٣ .

(٤) أقول : « من باب الجدل فقط » وذلك مجازةً للدكتور مراد ، الذي يرمى ابن إسحاق بأنه عبث بالسيرة بل وبالقرآن تحقيقاً لأغراض شخصية رومية إلى أهداف سياسية .

وأيا ما يكن الأمر فلم يذكر ابن إسحاق من بين مسلمي العصر
الملكى أحدا من بني هاشم إلا عليا وجعفر (ابنى أبى طالب) وإلا
حمزة عمهما (١)، أما من أسلم بعد ذلك منهم فإنما كان إسلامه
بأخرة. على أن أبا طالب لم يكن هو وحده الذى مات منهم على دين
قومه بل شركه فى ذلك أخوه أبو لهب، الذى لم تكتف السيرة بالقول
بأنه مات مشركا بل ذكرت أيضا أنه كان من الذين تولوا من زعماء
قريش كبير مناواة الرسول والصد عن دعوته وإيدائه الأذى الشديد حتى
لقد نزلت فيه وفى زوجته سورة قرآنية كاملة تلعنهما وتوعدهما بالنار
وأهوالها (٢)، وهو ما لم يحدث مع أى من زعماء الكفر لا فى مكة ولا
فى المدينة. وقد كان باستطاعة ابن إسحاق أن يتجاهل كل هذا لو كان
قد وضع نصب عينيه رفع مكانة بنى هاشم تزلفا لحلفاء بنى العباس.
ودعنا من أنه، ما دام قد وصل فى كذبه وتدجيله إلى هذا الحد، قد
كان يمكنه أن يدعى أن أبا لهب المذكور فى القرآن ليس هو عم الرسول

(١) وحتى إسلام حمزة نجد سيرة ابن إسحاق تعزوه إلى العصبية الأسرية بالدرجة
الأولى، إذ تقول إن حمزة كان عائلا من الصيد ذات مرة فلقى امرأة فى بعض
الطريق أخبرته بما كان من اعتلاء أبى جهل على ابن أخيه صلى الله عليه وسلم،
فما كان منه إلا أن قصد الكعبة حيث كان يجلس أبو جهل مع نفر من قريش
وصبره بقومه فى رأسه منجها صليها أنه منذ اليوم على دين ابن أخيه، ويُقفل أبو
جهل شيئا إذا استطاع (سيرة ابن هشام / ١ / ٢٦٠ - ٢٦١).

(٢) سيرة ابن هشام / ٢ / ٢ / ٥ - ٦.

بل شحصا آخر ! وعلى المتضرر أن يلجأ إلى أصاير قريش التي كانت تحفظ فيها أنسابها ، وأين مثل تلك الأصاير ؟

وانظر كذلك العبارة التي عَقِبَ بها ابن إسحاق على تطبيق عتبة ابن أبي لهب رُقِيَّة بنت رسول الله حينما أرادت قريش لإلام النبي وإحراجهِ وشعلَه بيناته كما قالوا فطلبوا من عتبة أن يطلق رقية فطلقها بعد أن روجوه بفتاة قرشية سمّاها لهم . قال ابن إسحاق : « ولم يكن أُدْخِلَ بها (أي برقية رضى الله عنها) ، فأخرجها الله من يده كرامة لها وهوانا له وحلّف عليها عثمان بن عفان بعده »^(١) ، وهي عبارة كان بمستطاعه ، لو كان يتعصب لبني هاشم ، أن يسكت عنها لما فيها من الإهانة والتحقير لائس منهم : أبي لهب وابنه .

بئس ذلك فحسب ، بل إن ابن إسحاق لم يذكر من هاجر إلى الحنة من رجال من بني هاشم إلا جعفر بن أبي طالب رضى الله عنه وأرضاه ، على حين عدّ من بني أمية عثمان بن عفان وعمراً وحالداً أبى سعيد بن العاص^(٢) . أى أنه في مقابل واحد من بني هاشم قد هاجر ثلاثة من بني أمية إلى الحنة . فما الذى اضطر ابن إسحاق لهذا لو كان يريد نصرة بني هاشم على بني أمية بالريف واليهتان ؟

(١) المرجع السابق / ٢ / ٢١٤ .

(٢) السابق / ١ / ٢٨٠ - ٢٨١ وهناك رابع من بني هاشم (أبي أمية ، الذى

يتسب إليه الأمويون) هو أبو حذيفة بن عنة بن ربيعة بن عبد شمس

إلى ذلك أن ابن إسحاق قد ذكر أيضا ، ضمن من كانوا يسرفون في إهداء الرسول بمكة ، ابن عمه أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، الذي اشترك أيضا في حرب الرسول والإسلام ببدر ، ولم يسلم إلا عند فتح مكة ، ولم يعف عنه الرسول عليه السلام وقتئذ إلا بعد لأى ، إذ تشفعت له أم سلمة رضى الله عنها حين جاء يلتمس الدخول على رسول الله فلم يأذن له ولم يقبل في البداية شعاعتها فيه ، ثم عاد فأذن له في الدخول عليه بعد أن بلغه أنه ، إن لم يعف عنه ، سوف يأخذ ابنه الصغير ويذهبان في الأرض حتى يهلكا من الجوع والعطش وعدئذ أعلن إسلامه ، ومع ذلك لم يكن دخوله في الإسلام سمحا ، إذ ادعى في شعره أنه طرد رسول الله من مكة كل مطرد ، فما كان من الرسول (حسبما تقول الرواية التي أوردها ابن إسحاق) إلا أن ضرب في صدره مستكرا وهو يقول : « أنت طردنى كل مطرد » (١) .

وبالمثل لم يتحرج ابن إسحاق أن يذكر أن الرسول عليه السلام لم يصطحب أحدا في هجرته من مكة إلى المدينة من بنى هاشم بل اصطحب أبا بكر (وأبا بكر وحده) ، ولم يستعن بأحد في تديرها إلا به وبأهله رضى الله عنهم . وأيضا لا نجد ، عند ابن إسحاق ، اسما من أسماء بنى هاشم ضمن من كلفهم رسول الله بعد فتح مكة بهدم

(١) انظر في أبي سفيان بن الحارث « سيرة ابن هشام » ٢١٠ / ٢ ، و ١٧٠ / ٣ ، و ٣١ / ٤ - ٣٢ .

الأصنام ، على حين يبرز اسم أبي سفيان زعيم الأمويين في هدم الثنتين منها^(١) . وكذلك لا يذكر ابن إسحاق أن الرسول قد ولى أحدا من بنى هاشم على المدينة عند خروجه مع المسلمين للغزو في سبيل الله^(٢) أو بعث أحدا منهم برسالة إلى ملوك الأرض الدين أرسل إليهم يدعوهم إلى الإسلام ، كما أن قواد الأعليية الساحقة من الغزوات والسرايا ، حينما وردوا عنده ، كانوا من غير بنى هاشم . وفي صلح الحديبية لم نسمع بأحد منهم إلا عليا ، وأخيرا فرغم غي العباس بن عبد المطلب (جد الحلفاء الذين يتهم د. مراد ابن إسحاق بحمالأنهم من خلال تمجيد أسلافهم على عهد النبي) فإيا لا نقرأ في سيرة ابن إسحاق أنه أنفق من ماله في سبيل الله كما أنفق عثمان بن عفان^(٣) ، الذي يقول كاتبنا إن صاحب السيرة قد عمل جاهدا على التقليل من شأنه وإيثاره في الظل بسبب أمويته ! ثم إنه لم يحارل أن يتجاهل ما ناله رضى الله عنه من شرف رفيع أضافه إلى كرم محتده بزواجه من اثنتين من بنات الرسول الأكرم بل لقد عدّه رضى الله عنه بين من حصروا بدرًا من

(١) المرجع السابق / ٤ / ١٢٨ .

(٢) حتى عندما خلف صلى الله عليه وسلم عليا في أهله في غزوة تبوك لم يستعمله ، كرم الله وجهه ، على للفتنة بل استعمل محمد بن مسلمة الأنصاري (ابن هشام / ٤ / ١٢٠ - ١٢١) .

(٣) انظر إتفاق عثمان رضى الله عنه في غزوة تبوك مثلا . وقد أثبت ابن إسحاق الدعاء الكريم الذى دعا به رسول الله له (ابن هشام / ٤ / ١١٩) .

المسلمين رغم تحلفه عنها بإذن الرسول لتعريض رقية زوجته رضى الله عنها في مرضها الذى ماتت فيه ، وذكر أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه قد ضرب له فى هذه الغزاة بسهمه وأعطاه أجره كأنه قد حضرها وحارب فيها مع المحاربين^(١) ثم بالله هل كان يمكن أن ينقل ابن إسحاق قول عمر، أثناء غزوة الحديبية ، للنبي عليه السلام فى عثمان . « إنه أعرى فى مكة منى » لو كان صاحب السيرة يعمل على التصغير من قدره ؟ أم هل كان من الممكن أن يذكر أن سبب أحد الرسول بيعة الرصوان من المسلمين فى تلك الغزوة هو غضبه ﷺ لما أشيع عن مقتل عثمان حين احتبسته قريش عدها وقد جاءها يعلمها رسالة النبي بأنه لم يأتهم محاربا بل معتمرا ؟ أم هل كان من الممكن أن يورد رفض عثمان، عند لقائه بقريش لتأدية الرسالة المذكورة ، أن يطوف بالبيت قبل طواف النبي عليه السلام ؟ أم هل كان من الممكن أن ينص على أن الرسول بايع لعثمان فى غيابه لدى قريش صاربا لذلك إحدى يديه الشريفتين بالأخرى ؟^(٢) ولا ننس أبصا ذكره زواج النبي من رملة بنت أبي سفيان (أم حبيبة) ، التى كان زوجها قد تنصر وتوفى بالحنشة فأرسل ﷺ إلى محاشيها فزوجه إياها وكيلا عنه^(٣) ، وبخاصة أنه عليه السلام لم يتزوج من أية هاشمية

(١) للرجع السابق / ٢ / ٢٢٣ .

(٢) السابق / ٣ / ٢٠١ - ٢٠٢ .

(٣) السابق / ٢ / ٢٠٥ - ٢٠٦ و ٢٢٥ .

وبالمثل فإن ما قاله ابن إسحاق في حق أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ينقض من أساسه ما أراد د. مراد إلصاقه به من أنه أراد الغض من قدرهما تقرباً لبني العباس . والحق أنني لا أستطيع أن أتذكر سبباً يدعو بني العباس إلى معاداة العُمَيين ، إذ لم يكن لدى العباس ولا أبه عند موت الرسول ﷺ مطمح إلى الخلافة . إنما ابتدأ العباسيون يتطلعون إليها في أواخر عهد بني أمية ، وكان ذلك من خلال مناصرتهم لأنصار عليّ ، حتى إذا ما تم لهم النصر على الأمويين وقصّوا على دولتهم رأيتهم يقبلون ظهر الحُجْن لأحفاد عليّ ويحتجونها لأنفسهم دونهم قائليين إن العم أحقُّ بالإرث من الحسن ، واضطرع شعراء الفريقين في جدال حول هذه النقطة الفقهية . ومع هذا فقلّ قلب صفحات « السيرة » لنرى أيسرّغ ما قاله ابن إسحاق في الخليفتين الأولين دعوى د. مراد التي مرت الإشارة إليها من توها . لقد ذكر ابن إسحاق أن أبا بكر قد دخل في الإسلام أول واحد من الرجال أو ثالث واحد من الذكور ، أي قبل حمزة وجعفر والعباس أنفسهم وسائر الهاشميين ما عدا عليا ، وأبرز دوره الخطير في إدخال نصر من سادة قريش في الدين الجديد مستغلاً الودّ الذي كانت قريش تحمله له من جراء دعائه خلفه وسجاجة نفسه ، فأسلم على يديه عثمان والزبير وابن عوف وسعد وطلحة ، علاوة على إسلام ابنته عائشة وأسماء . كما أورد كلمة الرسول العظيمة في حقه

حين قال . « مَدْعُوتٌ أَحَدًا إِلَى الْإِسْلَامِ إِلَّا كَانَتْ فِيهِ عِنْدَهُ كِبُورَةٌ وَيُظَرُّ^١ وَتُرَدَّدُ إِلَّا مَا كَانَ مِنْ أَبِي بَكْرٍ بْنِ أَبِي قَحَافَةَ . مَا عَكَمَ عَنْهُ حِينَ ذَكَرْتَهُ لَهُ وَمَا تَرَدَّدَ فِيهِ »^(١) . عَلَى أَنَّهُ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، لَمْ يَكْتَفِ بِهَذَا بَلْ أَدْحَلَ أَيْضًا عِدَّةً مِنَ الضَّعَفَاءِ الْمُسْتَرْقِينَ فِي الْإِسْلَامِ بَعْدَ أَنْ اسْتَرَاهَمَ وَأَعْتَقَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، مِمَّا دَفَعَ أَبَاهُ إِلَى لَوْمِهِ لِأَنَّهُ يَعْتَقُ الضَّعَفَاءَ وَكَانَ أُخْرَى بِهِ ، فِي رَأْيِهِ ، أَنْ يَعْتَقَ رِجَالًا أَقْوِيَاءَ يَقِفُونَ إِلَى جَانِبِهِ وَيُدَافِعُونَ عَنْهُ سَاعَةَ الشَّدَةِ ، فَكَانَ رَدُّهُ عَلَيْهِ أَنَّهُ إِنَّمَا فَعَلَ مَا فَعَلَ لَوَجْهِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ الصِّفِّ الْأَخِيرَ مِنْ سُورَةِ « اللَّيْلِ » يَثْبِي عَلَى عَمَلِهِ السَّبِيلِ وَيُشِيرُهُ بِالْبَيْرَى^(٢) .

وَمَا ذَكَرَهُ ابْنُ إِسْحَاقَ عَنْ أَبِي بَكْرٍ أَيْضًا مَوْقِفَهُ مِمَّا حَكَاهُ الرَّسُولُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ إِسْرَائِيلَ إِلَى بَيْتِ الْمُقَدَّسِ ، إِذْ بَلَغَ الْأَمْرُ أَنْ شَكَّ كَثِيرٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَنْفُسَهُمْ فِي الْحَبْرِ وَارْتَدُّوا عَنِ الْإِسْلَامِ ، أَمَا أَبُو بَكْرٍ فَقَدْ أَعْلَنَ بِقُوَّةِ أَمَامِ الْجَمِيعِ أَنَّهُ بِصَدَقِ كُلِّ كَلِمَةٍ قَالَهَا الرَّسُولُ الْكَرِيمُ فَسَاءَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِذَلِكَ بِـ « الصَّدِيقِ »^(٣) . كَمَا ذَكَرَ ابْنُ إِسْحَاقَ أَيْضًا دِفَاعَ الصَّدِيقِ عَنِ الرَّسُولِ أَدَّى بَعْضُ الْقُرَشِيِّينَ الَّذِينَ خَنَقُوهُ بِمَجْمَعِ رَدَائِهِ ، وَاتِّخَاذَهُ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فِي دَارِهِ مَسْجِدًا ، وَرَفَقَهُ نَفْسَهُ وَبَكَاءَهُ عِنْدَ

(١) السابق / ١ / ٢٣٠ - ٢٣٤ .

(٢) السابق / ١ / ٢٧٧ - ٢٧٩ .

(٣) السابق / ٢ / ٣٣ - ٣٤ .

نلاوته القرآن ، وتعرضه رضوان الله عليه للإيذاء من سفهاء قريش^(١) .
وبالمثل وقف طويلا عند صحبته للرسول في الهجرة إلى المدينة ، ذلك
الشرف الذي لم يُكْتَبْ لأحد غيره وخلّده القرآن في آية كريمة من آياته ،
وكذلك الاستعدادات التي اتخذها هو والرسول لإنجاح تلك الهجرة ،
والأدى الذي حاق بآبته أسماء على يد أبي جهل بسبب اشتراكها في
التعمية على الجهة التي انطلق فيها الصحابة^(٢) . كما نبه ابن إسحاق
على أن أبا بكر هو أيضا الوحيد الذي كان مع الرسول في العرش يوم
بدر وهو يتهل إلى ربه أن يتصره وينصر دينه وأتباعه^(٣) ، ونص على
عهد الرسول له بالصحّ بالناس سنة تسع للهجرة^(٤) .

وعند حديث ابن إسحاق عن مرض الرسول الأخير نراه يورد ما قاله
ﷺ عن أبي بكر ، إذ طلب من المسلمين أن يمدّوا جميع الأبواب
النافذة إلى المسجد إلا باب أبي بكر ، ثم أضاف قائلا : « فإنني لو كنت
متحذا حليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ، ولكن صحبة وإحباء إيمان حتى
يجمع الله بيما عنده »^(٥) ، ثم قوله ، لما اشتد عليه المرض ،

(١) السابق / ١ / ٢٥٩ ، و ١٦ / ٢ - ١٧ .

(٢) السابق / ٢ / ٩٢ - ٩٩ .

(٣) السابق / ٢ / ١٩٦ .

(٤) السابق / ٤ / ١٣٩ .

(٥) السابق / ٤ / ٢١٩ .

لأصحابه : « مَرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيَصِلْ بِالنَّاسِ » (١) ، وإتباعه به في إحدى الصلوات (٢) . والعجيب أن ابن إسحاق المتهَم من قتل بعض القديماء بالتشيع ومن د. مراد بممالة العباسيين لم يقل في كتابه إن رسول الله قد أوصى لأحد من بنى هاشم بأن يخلفه من بعده ، بل قال عكس هذا على طول الخط قولا صريحا ليس فيه أية مواربة ، إذ لما طلب العباس من عليّ قبيل وفاة الرسول أن يصحبه فيدخل على الرسول ليعرفا هل يريد استخلاف عليّ على أمور المسلمين أو لا رفض عليّ رفضا باتا لتقف المسألة عند هذا الحد . وعندما اجتمع المسلمون في سقيفة بني ساعدة بعد انتقاله ﷺ إلى الرفيق الأعلى ورشح عُمرُ أبا بكر للحلافة مثبًا عليه أورد ابن إسحاق كلام عمر هذا لإيراد من لا يجد فيه مجالاً للاعتراض أو الإنكار (٣) . فهل بعد هذا من برهان على أنه لم يكن يحمل لأبي بكر في نفسه أي ضغن ؟ وهل بعد هذا من برهان على أن الحديث عن ممالته للعباسيين هو حديث ظالم ؟

كذلك كيف يمكن أن يكره عُمرُ رجلٌ يصفه بما وصفه ابن إسحاق في كتابه من أنه : « كان رجلا ذا شكيمة لا يرَام ما وراء ظهره » وأن أصحاب رسول الله ﷺ امتنعوا به وبحمزة من أذى قريش ، أو يورد كلام ابن مسعود الذي يقول فيه : « ما كنا نقدر على أن نصلي

(١) السابق / ٤ / ٢٢١ .

(٢) السابق / ٤ / ٢٢٢ .

(٣) السابق / ٤ / ٢٢٥ - ٢٢٨ .

عد الكعبة حتى أسلم عمر ، فلما أسلم قاتل قريشا حتى صلى عد الكعبة وصلينا معه ، ، أو ينقل كلام حَبَاب بن الأَرْت له في بيت أخته فاطمة حينما شام منه أنه يوشك أن يعلن إسلامه ، إذ قال : « والله إنني لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه ، فإنني سمعته أصر وهو يقول اللهم أبد الإسلام بأبي الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب ، ، أو يروى أن الرسول ، عندما أعلن عمر أمامه إسلامه في دار الأرقم ، صاح قاتلاً في فرحة : « الله أكبر » ، وصاح من معه بالدار جميعاً يكسرون ، ثم يمضى فيقص كيف أتى الفاروق قريشا بعد ذلك عند الكعبة فكشف لهم عن إسلامه ومخداهم واشتبك معهم في عراك بالوا فيه منه ونال منهم ؟

أم كيف يمكن أن يكره عمر رجل يحكى موافقة الوحي له في عدد من مواقفه وآرائه كما فعل ابن إسحاق حينما ذكر أن عمر قد رأى في المنام من حذره من اتحاد المسلمين النافوس للبداء إلى الصلاة وأمره بدلا من هذا باستعمال الأداة ، وحينما ذكر موقعه من أسارى بدر ، إذ اقترح على النبي قتلهم ، بينما كان رأى الصديق قبول الفدية منهم وإطلاق سراحهم ، ونزل الوحي في صيف عمر عاتبا على النبي قبول العداء ؟ أم كيف يمكن أن يكره عمر رجل يبرز ، كسما أهراب إسحاق ، دوره يوم السبيعة في وأد الفتنة في مهدها ، تدك الفتنة التي جمعت من اختلاف المهاجرين والأنصار حول من ينبغي أن يتخلف رسول الله في حكم المسلمين ، إذ أخذ أنا بكر مسرعا إلى هناك وخطب في

القوم مثنيا على الصديق ثم مدّ يده قبايحه لبيايحه الناس عقب ذلك ولتزلزل الفتنة التي كادت أن تعصف بالدولة الجديدة^(١) أم كيف يمكن أن يكره عمر رجل يحرص ، كما حرص ابن إسحاق ، على أن يذكر أن قبيلة بني عدي بن كعب (قبيلة الماروق) كانت من القبائل القرشية القليلة التي لم يرحل منها أحد لقتال المسلمين في بدر ؟^(٢)

ولعل من المناسب والمفيد أيضا أن نحتم كلامنا في هذا الأمر بما أكده ألفريد جيوم من أن ابن إسحاق ، رغم ميله العلوي كما يقول ، لم يحاول العوض من إخلاص أبي بكر الوثيق ولا من حماسة عمر وجسارته ، بما يدل على أن هذا الميل لم يخرجهم عن اعتداله وتوراه^(٣)

والطريف أن ابن إسحاق ، المتهم من الدكتور محمود على مراد بأنه قد راعى العباسيين أثناء كتابته للسيرة وما لأهم وشوّه الحقائق التاريخية من أجل إرضائهم والتقرب إليهم ، هو نفسه الذي قال عه ألفريد جيوم المستشرق البريطاني إنه كانت في « سيرته » أشياء لا ترضي العباسيين قام ابن هشام بتشديدها^(٤) ممكن ابن إسحاق ! إنه يتهم بالشيء وبقيصه ، فما العمل ؟ العمل هو ما عملناه في الصفحات الماضية ، إذ تركنا سيرة ابن إسحاق تتكلم بنفسها عن نفسها دون أن نغسرها على أن

(١) السابق / ٢ / ١١٢ ، ر ٢ / ٢٣١ - ٢٣٢ ، و ٤ / ٢٢٥ - ٢٢٨

(٢) السابق / ٢ / ١٩١ .

(3) Guillaume, The Life of Muhammad, p. XXXIV

ومع هذا ينبغي لم ألحظ في سيرة ابن إسحاق ما يدل على تشيع لعل البيت

(4) Guillaume, The Life of Muhammad, pp. XXII, XLII

تنطق بما في نفوسنا نحن .

ومن جهة أخرى فإن ما قاله ابن إسحاق في « سيرته » لا يخرج عما قاله غيره من كتاب السير والمؤرخين ، اللهم إلا أن بعضهم قد يقدم بعض الوقائع أو يؤخرها ، وبعضهم قد يتوسع في بعض التفاصيل أو يختصرها ، وبعضهم قد يبرز هذا الأمر أو ذاك أكثر مما فعل ابن إسحاق ... إلخ . وليرجع من شاء إلى الطبرى أو ابن كثير أو ابن الأثير أو للمسعودى في تواريخهم أو إلى كتاب السير والمغازى ، وسوف يجدهم يقولون ما قاله ابن إسحاق ، اللهم إلا بعض الخلاف فى النقاط التفصيلية . حتى المستشرقون الذين ترجموا للنبي عليه الصلاة والسلام وسجلوا أحداث حياته لم يخرجوا عن الإطار الذى رسمه ابن إسحاق فهما عدا بعض التفاصيل كما قلنا . يستوى فى ذلك سيل وارفنج وموير ومرجليوث وبودلى ووليم موتجمرى واط ومارنس لنجيز وكارينس لومسنروخ وسافارى ودرمنجم وروندسون وجورجيو (الدبلوماسى لرومانى) وغيرهم .

ثم إن هناك بضعة أسئلة لا بد من وضعها بين يدي القارئ حتى ينجلي له وجه الحق بينا ساطعا ، وذلك إن لم يكن قد انجلي بعد كل ما تقدم . وهذه الأسئلة هى : هل كان ابن إسحاق وحده هو الذى يعلم وقائع السيرة النبوية بحيث يستطيع أن يتلاعب بها كما يهوى دون أن يكشف عيبه أحد ؟ والجواب بالطبع هو : كلاً . ومعنى ذلك أنه لو كان قد أفسد سيرة النبي لقد كان هناك كثيرون غيره يعرفونها على

وجهها الصحيح ، فلماذا سكتوا ولم يحاولوا فضح هذا الفساد ؟ أكانوا يحافون ابن إسحاق وقد كان مجرد عالم كسائر العلماء ليس في يده ما يرهبهم به ؟ أم كانوا يحافون من العباسيين ؟ لكننا نعرف أنه مهما قسا الأحكام بالرعية واستبدوا ونكّلوا بهم بحالهم فإن ذلك لا يمنع من وجود من يعارضهم باللسان والقلم والسلاح ، فلماذا شد الأمر هنا فلم يظهر من يعارض ما كتبه ابن إسحاق بالناطل تركّفاً إليهم ؟ هل عقلت الأمة في هذا الأمر فلم يبرز منها عالم شجاع يقول الحق ولو من بين صفوف أعدائهم ، وهم كثير ، مثلما كان هناك شعراء يعارضونهم ويهجونهم في أشعار عبرت القرون إليها دون أن يستطيع أحد أن يطمسها أو يخفيها ؟ أليكون الذين أهون على أمة محمد من الشعر حتى نحفظ على هذا ونهمل ذلك ؟ إن ما يقوله د. مراد عن سيرة ابن إسحاق ليسه إلى حد بعيد ما قاله من قبل المستشرق البريطاني مرجليوث حين وضع بحثاً في سنة ١٩٢٥م أنكر فيه وجود الشعر الحاملي والإسلامي وزعم أن المسلمين في العصر العباسي هم الذين اخترعوه وأضافوه إلى من سموهم بامرئ القيس وطرفة وعنترة ودهير والأعشى والسابعة . إلخ ، متهماً بذلك الأمة من طرفٍ خفي بأنها أمة من الكذابين والأغبياء^(١) كما يست في الدراسة التي قدّنت فيها هذه النظرية المرجليوثية

(١) وأما الكذابين فهم الذين اخترعوا هذا الشعر واخترعوا له أصحاباً سموه إليهم ، وكذلك الذين وأطروهم على هذا التزييف ، وأما الأغبياء فهم الذين حارب عليهم هذه الخدعة ولم يستطيعوا اكتشافها

السخيفة^(١). وهذا كله إن سلمنا أن ابن إسحاق هو فعلا رجل لا يستحق الثقة ويمكن أن يُقدّم على ما سبه إليه الأستاذ الدكتور. على أن شيئا مُهماً فات الأستاذ الدكتور ، ألا وهو أن هناك كتاب سِيرٍ ومغازٍ سبقوا ابن إسحاق . وبين أيدينا عملان لاثنتين منهم هما عروة بن الزبير وابن شهاب الزهري . وإذا كان د. مراد ينهم ابن إسحاق بهمالأة العباسيين والأنصار وتزوير التاريخ من أجلهم ، فإنه لا يستطيع توجيه مثل هذه التهمة لتفنيك العالمين من رجال العصر الأموي ولا يمكن من ثمّ القول بأنهما كانا بهمالثان بنى العباس . ذلك أن الدولة العباسية لم توجد إلا بعد موتهما . كما أنهما لم يكونا من الأنصار أو مواليهم ولا من بنى هاشم (وإن كانا قرشيين) ، وكلاهما يقول ما قاله ابن إسحاق بوجه عام . وهناك أيضا ابن حزم ، الذي كان يعيش في ظل الدولة الأموية الأندلسية المحاصرة للدولة العباسية ووزر هو وأبوه للأمويين هناك ، ومن هنا كان بعيدا كل البعد عن مجال تأثير بنى العباس والتحيز للأنصار ، ومع ذلك فهو يقول ما قاله ابن إسحاق في « سيرته » .

ونبدأ بعروة بن الزبير ، الذي تحدث هو أيضا في كتابه « معازي رسول الله صلى الله عليه وسلم » عن قلة المسلمين بمكة والفتن التي كانت تصبّ عليهم من كل جانب وأمر الرسول لهم بالخروج إلى

(١) بحث مرجليوت المذكور هنا هو « أصول الشعر العربي » ، وقد ترجمته ورددت عليه في دراسة ملحقة بالترجمة (نشر دار النهضة العربية وتوزيع مكتبة وهراء الشرق / القاهرة / ١٩٩٦ م) .

أرض الحبشة والاحتفاء بملكها الصالح الذي لا يُظَلَمُ عند أحد (١)، وإغاورة التي دارت بين رسولَي قريش ومهاجري المسلمين في بلاط ديك المسك بما لا يحرج عما قاله ابن إسحاق إلا في بعض التلويحات الثانوية (٢)، ومحاصرة قريش لبني هاشم في شعب أبي طالب، الذي كان يعطف على ابن أخيه ويحاف عليه أذى قريش أشد ما يكون العطف والخوف (٣)، وحروجه صلى الله عليه وسلم إلى الطائف وتعرّضه للإهانة والرمي بالحجارة والتحاثه إلى بستان أبي ربيعة ومقابله علامهما عدماً الصراني هناك وكلامه معه عن يونس بن متى عليه السلام وإكباب ذلك العلامة على قدمي رسول الله بقبلتهما (٤)، وأحداث العقبتين ومعاهدة الأنصار إياه في الثانية على حمايته وقتال من يحاول مسّه بأدى، وحضور العباس تلك المعاهدة للاطمئنان على مصير ابن أخيه مع هؤلاء القوم (٥)، وهجرة المسلمين إلى المدينة ثم هجرة الرسول وأبي بكر واختبائهما في العار من مطاردة قريش لهما (٦)، والشاء الجَمّ

(١) عروة بن الربير / معازي رسول الله صلى الله عليه وسلم / تحقيق د. محمد مصطفى الأعظمي / مكتب التربية العربي لدول الخليج / الرياض / ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م / ١٠٤ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١٢٧ .

(٢) المرجع السابق / ١١١ - ١١٤ .

(٣) السابق / ١١٤ - ١١٥ .

(٤) السابق / ١١٨ - ١١٩ .

(٥) السابق / ١٢٥ - ١٢٧ .

(٦) السابق / ١٢٧ - ١٢٩ .

على الأنصار لما خصّهم الله به من كرامة قبولهم الإسلام والتحمس له^(١)... إلخ .

وقد كان باستطاعة عروة ، لو لم يكن يخاف الله ويستحي بكتابه وجه الحق ، أن يكتم مثلاً وقوف أبى طالب بجوار الرسول عليه السلام وشجاعة جعفر فى الجهر بمقيدة الإسلام فى بلاط الجاشى النصرانى بما يحالف اعتقاد المصارى فى عيسى بن مريم عليه السلام . أليس أبى طالب هو والد على ، الذى لم تكن الأمور تجرى سلسة بينه وبين عائشة خالة عروة ؟ ثم أليس جعفر أخا على أيضا ؟ كذلك لو كانت المسائل على النحو الذى يتخيلها د. مراد لما ذكر عروة أباه الزبير على رأس قائمة المهاجرين إلى الحبشة ، إذ يتهم د. مراد ابن إسحاق بأنه ، حينما أورد فى « سيرته » عزم أبى بكر على الهجرة إلى الحبشة ، إنما أراد التصغير من شأنه بتصويره رجلاً فراراً يعمل على النجاة بجلده من الأذى دون التفكير فى رسول الله ، الذى خلفه وراءه فى مكة هدفاً لإهذاء المشركين على ما سوف يأتى بيانه .

وبعد عروة يأتى ابن شهاب الزهري . وهو أيضا ، مثل عروة ، قد توفى قبل قيام الدولة العباسية ، إذ انتقل إلى رحمة ربه سنة ١٢٤ هـ ، كما أنه كان قرشياً ، أى مكّى الأصل ، ومع ذلك نجد فى « مغازيه »

(١) السابق / ١١٧ ، ١٢٣ ، ١٢٦ ، ٢٣١ .

نفس الأحداث التي ذكرها ابن إسحاق وعلى نفس النحو التي ذكرها بها هذا العالم الجليل ، وذلك رغم أن كتابه لا يعطى سيرة النبي عليه السلام كاملة بل يركز على المغارى مع لمس بعض أحداث المرحلة المكية أحيانا . لقد روى ذلك العالم الجليل قصة حجر زمزم مثلما رواها ابن إسحاق مع بعض الاختلافات الطفيفة ، إذ (كما هو الحال عند ابن إسحاق) نجد الرؤيا التي تكررت لعبد المطلب ونسمع الهاتف الذي أتاه وهو نائم عند الكعبة يذله على موضع زمزم بمعارات قصيرة مسجوعة ... إلخ^(١) كما ذكر ابن شهاب كفالة أبي طالب لمحمد النبي بعد وفاة جده أبي طالب وحده عليه وتقريبه له ، وتحدث عن سرية الدعوة في سنواتها الأولى ثم الجهر بها إثر نزول قوله تعالى : ﴿ فاصدع بما تؤمر ، وأعرض عن المشركين ﴾^(٢) ، وأبرز شدة عمر على رسول الله في بداية الأمر ثم الانقلاب الذي حدث له وأدى إلى دخوله في الإسلام إثر ضربه لأخته وزوجها عندما علم بإسلامهما ، وإن كان يجعل الرواية الأخرى التي رواها ابن إسحاق عن إسلامه رضى الله عنه مجرد امتداد للرواية التي تتحدث عن أخته وضربه لإياها مع شيء من الاختلاف^(٣) . وبالمثل

(١) ابن شهاب الزهري / المغازي النبوية / تحقيق سهيل زكار / دار الفكر / ١٤٠١هـ - ١٩٨١م / ٣٧ وما بعدها .

(٢) المرجع السابق / ٤٦ ، ٧٤ .

(٣) السابق / ٤٦ - ٤٧ .

يتحدث عن الهجرة إلى الحبشة ويذكر أسماء بعض من قاموا بها^(١) وعزم أبي بكر على اللحاق بهم ثم عودته مع ابن الدُّعْنَة ، الذي أجاره من أذى قريش ، وتحلله بعد ذلك من هذا الجوار حينما رأى أنه قد أصبح قيدا عليه وعلى دينه^(٢) ، ثم صحبتته بعد ذلك لرسول الله في هجرته إلى يثرب ومطاردة قريش لهما . بل إنه ليذكر تفصيلا لم ترد عند ابن إسحاق ، وهي نسج المنكبوت حيوطها على باب غار ثور ، الذي اختبأ فيه^(٣) . وكمثل ابن إسحاق نراه يروي لنا حكاية الشيطان الذي اتحد هيئة شيخ مجدى ، مع بعض التفصيلات التي لا نجدها في سيرة ابن إسحاق^(٤) . كما بين أن أول آية نزلت في إباحة القتال هى : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير »^(٥) .

ورأى لمقتصر على هذا لأنه هو الذى ينكره د. مراد على ابن إسحاق ويدعى أن حقيقة الأمر بخلافه . وأكرر مرة أخرى أن كتابى عروة وابن شهاب هما أساسا فى « المغازى » (أى فى غزوات الرسول فى المدينة) لا فى السيرة كلها .

وها نحن أولاء نصل إلى ابن حزم وكتابه « جوامع السيرة النبوية » .

(١) السابق / ٩٦ .

(٢) السابق / ٩٧ - ٩٨ .

(٣) السابق / ٩٨ - ١٠٢ .

(٤) السابق / ١٠٠ .

(٥) السابق / ١٠٥ .

وقد قلنا إن ابن حزم ، وإن عاصر الدولة العباسية ، فإنه لم يعيش تحت سلطانها ، إذ هو من سكان الأندلس ، التي كان يحكمها آنذاك بنو أمية ، وفوق ذلك فقد تولى هو وأبوه الوزارة لهم . ليس ذلك فقط ، بل كانت أسرته من موالى الأمويين (موالى يريد بن أبى سفيان على وجه التحديد)^(١) . وعلى هذا فلا مجال للقول بأنه كان يراعى العباسيين أو الأنصار فيما سطر من وقائع السيرة المحمدية . فإذا طالعنا ما كتبه فى هذه السيرة وجدناه هو نفسه ما كتبه ابن إسحاق ، اللهم إلا بعض الاختلافات القليلة الضعيفة التى لا تقدم ولا تؤخر . ولو كان ابن إسحاق قد حابى بنى العباس أو الأنصار على حساب الحقيقة لما سكت ابن حزم ، فقد كان رضى الله عنه ذا شخصية قوية مستقلة ، وكان يصدع بالحق لا يمالى . ويكفى أنه قد استقل بمذهب فقهى خاص به خالف فيه الجور السائد فى بلاد الأندلس ، وهو المذهب الظاهرى ، وله رأى فى العناء يختلف عن آراء معظم علماء الديس فما الذى نجده فى « جوامع السيرة » ؟

لقد ذكر ابن حزم أن الدعوة المحمدية مرت فى بداية أمرها بفترة استحفاء ، ثم أعلن رسول الله ﷺ بالدعاء إلى الله عز وجل وجأهرته فريش بالعداوة والأدى ، إلا أن أما طالب عمه كان حديبا عليه مانعا له وهو باقى على دين قومه ،^(٢) وكان قبل ذلك قد ذكر أنه هو الذى

(١) انظر مقدمة « جوامع السيرة النبوية » / إعداد أحمد حس جابر رجب / مطبع
مجلة الأزهر / جمادى الأولى ١٤١٣ هـ / ١ / ٤ .
(٢) ابن حزم / جوامع السيرة النبوية ١ / ١ / ٨٠ .

كفله بعد موت جده ، وكان به رفيقا ، وقد خفف الله تعالى بذلك من عذابه ، فهو أحف أهل النار عذابا ^(١) . كما جعل ابن حزم عم الرسول الثاني أبا لهب وابن عمه أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب من رؤوس قريش المجاهرين بالأذى والعداوة له عليه الصلاة والسلام ^(٢) ، وكذلك عرّس للهجرة إلى الحبشة وبين أن سببها هو انتشار الإسلام واشتداد عذاب قريش للمسلمين من جرّاء ذلك ، وذكر أسماء من قاموا بتلك الهجرة ولم يكن يسها من رجال بني هاشم إلا جعفر بن أبي طالب وحده وضوان الله عليه ^(٣) ، وقصّ نبأ الرسولين اللذين بعثت بهما قريش إلى النجاشي ليؤمرا صدره عليهم وفشلهما في ذلك ^(٤) ، وكذلك نبأ الحصار الاجتماعي والاقتصادي الذي ضربته قريش على بني هاشم وبني المطلب ^(٥) بغية إجبارهم على التخلي عن رسول الله ، والصحيفة التي كتبوها في ذلك ، والمعاماة التي قاساها الرسول وعشيرته بسبب هذه المقاطعة ... إلخ ^(٦) ، وعزم أبي بكر على الهجرة إلى الحبشة أسوة بمن سبقه إليها من المسلمين ورجوعه من الطريق مع ابن الدّعة ،

(١) المرجع السابق / ١ / ٢٥ .

(٢) السابق / ١ / ٨٠ .

(٣) السابق / ١ / ٨٤ ، ٨٦ .

(٤) السابق / ١ / ٩٢ .

(٥) إلا أبا لهب ، الذي انتحز لقريش صد عشيرته .

(٦) السابق / ١ / ٩٣ - ٩٤ .

الذى رفض أن يتركه يغادر وطنه (١) .

وتذكر « جوامع السيرة النبوية » أيضاً التقاء الرسول عليه السلام بأهل المدينة والبيعتين اللتين بايعوه عليهما : بيعة العقبة الأولى ، التي سماها (كما سماها ابن إسحاق) « بيعة النساء » قائلًا إنهم « لم يكونوا أمروا بالقتال بعد » وإن الرسول قد بعث معهم مصعب بن عمير ليعلمهم القرآن ويدعو إلى الإسلام من لم يكن قد أسلم منهم ، وكانت النتيجة أن « لم تبق دار من دور الأنصار (٢) إلا وفيها مسلمون رجالا ونساء حاشا بنى أمية بن زيد وخطمة وواقف ... ثم أسلموا كلهم (بعد بدر وأحد والخندق) » (٣) . ثم بيعة العقبة الثانية ، وهي التي « بايعوا رسول الله ﷺ (فيها) على أن يمعوه بما يمعون من نساءهم وأبائهم وأزواجهم وأن يرحل هو إليهم وأصحابه » ، وحضرها العباس عمه رعم بقائه على دين قومه آنذاك ليطمئن على ابن أخيه وعلى أن أهل المدينة سيحمونه في مهاجرة (٤) . وتمضي « جوامع السيرة النبوية » فتحدث عن الهجرة الجماعية للمسلمين ثم تعقبها بالحديث عن هجرة النبي والصديق بعد أن اتصرت قريش على قتله ﷺ ومطاردتها لهما واختبأتهما في العار ... إلخ . وفي كل ذلك يسمي ابن حزم أهل

(١) السابق / ١ / ٩٤ .

(٢) لاحظ كيف سماهم « أنصار » منذ أول لقاء لهم بالرسول ، وهو ما نذكره الأستاذ

الدكتور علي ابن إسحاق .

(٣) السابق / ١ / ١٠١ - ١٠٣ .

(٤) السابق / ١ / ١٠٥ .

المدينة بـ « الأنصار » (١) ، ويقول عنهم : « كان من صنع الله تعالى لهم أنهم كانوا جيران اليهود ، فكانوا يسمعونهم يذكرون أن الله تعالى بعث نبيا قد أظل زمانه ، فقال بعضهم . هذا والله النبي الذي يتهددكم به اليهود ، فلا يسبقونا إليه . فآمنوا وأسلموا وقالوا : إنا قد تركنا قومنا وبينهم حروب فننصرف إليهم وندعوهم إلى ما دعوتنا إليه ، فعسى الله أن يجمع كلمتهم بك ، فإن أتبعتك فلا أحد أعز منك . فانصرفوا إلى المدينة فدعوا إلى الإسلام حتى فشا فيهم ولم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله ﷺ » (٢) . وهنا كله هو نفس ما تقوله سيرة ابن إسحاق ، الذي ينهمه الدكتور مراد بأنه زور ذلك تقرها لخلفاء بني العباس ، وهو ما سوف تناقشه تفصيلا فيما يلي من صفحات .

(١) السابق / ١ / ١٠٥ .

(٢) السابق / ١ / ٩٩ - ١٠٠ .

(٢)

تلك هي الحطوط العامة ، والآد إلى التفاصيل .

وأول ما نقف عنده من كلام د مراد قوله إن القرآن هو المصدر الوحيد الذى اعتمد هو عليه فى كشف زيف ما كتبه ابن إسحاق عن سيرة النبي عليه السلام ، وإن اعترف رغم ذلك أن القرآن لا يحتوى إلا على القليل من الأحداث التاريخية^(١) . وقد أشار فى هذا السياق إلى المرحوم محمد عزة دروزة ، الذى وصفه بأنه أول من أشار إلى أن سيرة ابن إسحاق تقدم للنبي صورة مريمة تختلف عما جاء فى القرآن الكريم ، وأنه كتب سيرة للرسول عليه السلام تكاد أن تقتصر على ما ورد عنه فى القرآن^(٢) .

والحق الذى لا مَرَّة فيه هو أن القرآن الكريم لا يصلح أن يكون مصدراً وحيداً لسيرة النبي عليه السلام ، إذ ليس فيه تواريخ ولا أسماء أشخاص ، وقلماء يذكر أحداثاً أو يبين مواقع ، كما أنه لا يعتمد الترتيب التاريخى فى حكاية ما يقصه عن الرسول الكريم رغم قلته إنه مثلاً يخلو خلواً تاماً من أى حديث عن ميلاد النبي أو عشيرته أو أبيه وأمه أو جده وعمه أو أبنائه وزوجاته ، اللهم إلا إشارة عارضة عن يتمه وفقره فى سورة « الصحنى » وإشارتى عارضتين مثلها عن زوجاته فى سورتي « الأحزاب » و « التحريم » ، وليس فيه من حديث عن

(١) Mahmoud Ali Mourad, La Biographie du Prophète . p. 9

(٢) المرجع السابق / ٦ .

وقائع الأذى الذى ألحقته به قريش وسفهاء الطوائف سوى قول أهل مكة عنه إنه « ساحر وكذاب وكاهن ومجنون » . كذلك لا يوجد فيه ذكر للحبشة ولا للمقاطعة الاقتصادية والاجتماعية التى فرضتها قريش عليه ﷺ هو وعشيرته . وأما القرآن فليقلب فيه من أوله إلى آخره فلن نعثر فيه على اسم أى صحابى (إلا ريذا ، وباسمه الأول فقط) ولا عن الظروف التى أسلم فيها أو ألوان الإهانة والتعذيب التى كان يتعرض لها من جراء ذلك . وبالمثل لن يجد الباحث فى تاريخ عسزوات الرسول اسم « أحد » أو « الحديبية » أو « خيبر » أو « تبوك » أو « مؤتة » أو « بنى قريظة » أو « بنى المضير » أو « بنى قينقاع » أو « بنى المصطلق » أو كتب الرسول للملوك للعالم من حوله ... إلخ ... إلح. لن يجد من ذلك إلا اسم « بدر » و « حنين » . أما الأستاذ دروزة فإنه ، وإن جعل القرآن منطلقاً إلى كتابة سيرة للنبي عليه الصلاة والسلام ، لم يستطع الاستغناء ، فى أية خطوة خطاها ، عن كتب التاريخ والسيرة والحديث والتفسير ، فهو دائم الرجوع إلى ابن هشام والطبرى وابن سعد والبلاذرى والبخارى ومسلم والترمذى والبيهقى وابن حجر والزمخشري والخازن والفيروى وابن كثير والطبرسى والياورى والسيوطى والوالحدى ، فضلاً عن بعض المحدثين من المسلمين والمشرقين^(١) . وبالمسابقة فمقتداه الأول هو سيرة ابن هشام ، التى هى شرح لسيرة ابن

(١) وقد رجم د. محمد رأيت سيد هو أيضاً أن د. محمد حسي هيكل لم يعتمد فى « حياة محمد » إلا على القرآن الكريم ، وهو ما ودعت عليه من كتابى « محمد حسين هيكل أدبا وثقافتا ومفكرا إسلاميا » (مكتبة زهران لشرق / ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م / ٢٣٤ /

إسحاق المثهم عند د. مراد وبالنسبة أيضا فإن الأستاذ الدكتور ، لندرة ما في القرآن الكريم من وقائع وأسماء ، سوف يترك لخياله العنان واسعا ويعيد صياغة السيرة على نحو لا يقبله العقل لأنه لا يستند فيه إلى شيء من كتب السيرة والتاريخ والحديث . ومن هنا تأتي المفارقة ، إذ رغم دعوته الحارة إلى الاختصار في تسجيل سيرة الرسول على القرآن الكريم رآه قد أهمل القرآن ومضى مع الخيالات الجامحة ، وتلك نتيجة طبيعية لإهمال ما كتبه القدماء والازرار عنهم واتهامهم ، دون دليل ، بالتريف والوصع والخضوع لأهواء السياسة والعصية .

ثم يناقش د. مراد ما ورد في سيرة ابن إسحاق عن عبد المطلب جد الرسول (١) وجريا على منهجه في التشكيك في كل شيء تقريرا نراه يقول إن تصدى عبد المطلب لأبرهة وجيشه معناه أنه كان سيد قريش ، على حين أنه لا يعدو أن يكون زعيما لبني هاشم محسب . والرد على ذلك يتلخص في أن عبد المطلب كان يتولى سقاية الحجاج الذين يقدون إلى الكعبة ، وكان أبرهة يريد هدم الكعبة ، فمن الطبيعي أن يدور بينهما حوار في ذلك الشأن . ولا غرابة إذن أن يكون عبد المطلب ، لهذا السبب على الأقل ، هو المتحدث باسم قريش إلى القائد الحبشي . أما استعراب د. مراد أن يسمى عبد المطلب ، في حديثه مع قائد جيش أبرهة ، رسول الله إبراهيم بـ « خليل الله » وأن يقول « عليه السلام » لأن هذا وذاك استعمالان إسلاميان صرفان ، فقد يكون استفراجا في

(1) Le Biographie du Prophète, pp. 29 - 30 .

محله . لكن من الممكن أيضا أن تكون العبارتان من تعليق ابن إسحاق على كلام عبد المطلب ، أى جملتين اعتراضيتين أدخلهما فى كلام جدّ الرسول^(١) . وكذلك يستغرب الأستاذ الدكتور أن يكون عبد المطلب مؤمنا بدين إبراهيم ، وفى نفس الوقت يعيد الأصنام ويسمى ابنه « عبد العزى » ويكر فى ذبح واحد من أبنائه عبد الكعبة . ولكن من السهل تفسير ذلك ، فقد كان مضى على دين إبراهيم آلاف السنين ، وهى كفيلة بإفساد أشياء كثيرة فى دين أبى الأنبياء ، ومن هنا احتلّطت بقايا هذا الدين مع عدد من العقائد والشعائر الوثنية . وهذا أمر غير مقصور على ديانة إبراهيم بل تعرضت لها كل الأديان تقريبا

ومما يعترض عليه د مراد فى سيرة ابن إسحاق أيضا ما يسمى بفترة الاستحفاء ، وهى السنوات الأولى التى كان النبى عليه السلام يدعو فيها إلى الإسلام سرا . وحجته فى ذلك أنه كان من المستحيل تحعى المسلمين فى صلاتهم ، التى لا بد أن تؤدى جماعة ، وبخاصة أنهم كانوا يمارسونها خمس مرات كل يوم كان عليهم أثناءها أن يتركوا بيوتهم وأعمالهم ومتاجرهم ويذهبوا إلى مكان بعيد خارج مكة يقيمون فيه هذه

(١) كما يفعل بعض المسلمين حين يترجمون شيئا مما كتبه المستشرقون عن النبى ، فإنهم قد يترجمون اسمه بالصلاة والتسليم عليه رغم أنه لا وجود لذلك فى الأصل الذى يترجمونه . وقد يتبدلون باسم « محمد » لقب « النبى » أو « الرسول » رغم عدم اعتراف المستشرق الذى يترجمونه عنه بنبوته صلى الله عليه وسلم .

الشعيرة . كما يتساءل كيف يكون ثمّة استخفاء في الوقت الذي لا بد أن يكون هناك مكيون تمت دعوتهم إلى الإسلام ولم يستجيبوا له ، فصلا عن أهلهم وأصدقائهم عن تخذلوا إليهم بهذا الشأن ، وهو ما يفيد أنه كان هناك من يعلم بأمر النبي ودعوته خارج نطاق المؤمنين به ؟ (١)

ولا بد من المسارعة إلى إيضاح الخطأ الذي وقع فيه الأستاذ الدكتور، إذ ظن ، بناء على كلام ابن إسحاق في هذا الشأن (٢) ، أنه كانت هناك خمس صلوات مفروضة منذ بداية الإسلام الأولى ، ولا بد من تأديتها تأدية جماعية ، إذ من المعروف أن الصلاة إنما فرضت خمس مرات في اليوم واليلة في ليلة الإسراء والمعراج (٣) . وقد ذكر ذلك ابن إسحاق معه وروعه بعد موت حديجة وأبي طالب ، أي في أواخر المرحلة المكية وليس في أوائلها . وزيادة على ذلك لم يكن الأذان قد عرف بعد ، والأذان هو الوسيلة لتعريف المسلمين بدخول وقت الصلاة وللنداء عليهم لينجمع منهم في المسجد من أراد تأديتها مع الجماعة ، فكيف كان من الممكن تأدية الصلاة جماعة على هذا النحو المنتظم في ذلك الوقت المبكر من الإسلام ؟ ثم إنه ليس يلام أن تؤدى الصلوات في جماعة ، اللهم إلا في الجمعة والعيدين ، وإن كانت

(١) La Biographie du Prophète, p. 40 - 43

(٢) سيرة ابن هشام / ١ / ٢٢٨

(٣) المرجع السابق / ٢ / ٣٩ .

تأديتها في جماعة أفضل من تأديتها على نحو انفرادي كما هو معروف . وقد رأينا ابن شهاب الزهري وابن حزم يذكران فترة الاستحقاق ، ونفس الشيء نجده في كل كتب السيرة والتاريخ التي نعرفها . ولماذا نمضي بعيدا وعندنا القرآن ، وفيه قوله تعالى لسيه عليه السلام : ﴿ فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ﴾ ^(١) ، وهو يدل على أنه صلى الله عليه وسلم قبل ذلك لم يكن يصدع (أى يجهر) بدعوته ؟ إلا أن الأستاذ المؤلف ينفي أن يكون في أمر القرآن للرسول بأن « اصدع (بما تؤمر) » شيء جديد يختلف عن أمره إياه بالقراءة والإنذار في مثل قوله قبل ذلك : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ﴾ ^(٢) أو ﴿ يا أيها المدثر * قم فأنذر ﴾ ^(٣) ، ومن ثم فالأمر بالصدع لا يمثل مرحلة جديدة لأن دعوة الرسول كانت منذ البداية علنية ^(٤) .

والواقع أن « الصدع » شيء مختلف عن مجرد القراءة أو الإنذار ، فإن القراءة (أى تبليغ الوحي للناس) وكذلك الإنذار يمكن أن ينحصرا في دائرة الأصدقاء والمعارف المقربين الذى يطمئن الشخص إليهم ،

(١) الحجر / ٩٤ .

(٢) العلق / ١ .

(٣) المدثر / ٢ .

ويمكن أيضا أن يخرجنا عن هذه الدائرة الضيقة إلى نطاق للجماهير الواسعة . وهنا إن كانت آيتنا سورة « الليل » و « النبا » قد نزلتا فعلا قبل قوله عر وشأنه : « فاصدع بما تؤمر » . كما أن كتب التفسير تصف الآية الأخيرة بأنها تمثل بداية مرحلة جديدة هي مرحلة الاستعلان بالدعوة . كذلك ينبغي ألا ننسى أن أى داعية أو مصلح حين يواجه قومه بشيء جديد فإنما يتجه أول ما يتجه إلى أهل بيته وأصدقائه المقربين تحسنا لحطوته ، فإذا ما اطمأن فإنه يفكر حيثذ في اكتساب أرض جديدة والحروج من هذا النطاق الضيق إلى أفق أرحب قليلا ... وهكذا . إن هذه هي طبيعة الأمور^(١) ، فلماذا استعرباها في حالة الرسول عليه السلام ؟

ومن المسائل الجديرة بالمناقشة في رسالة د. مراد دعواه بأن أصحاب الأخدود « الوارد ذكرهم في سورة « البروج » هم بنو عبد المطلب عشيرة النبي الأقرين ، الذي أمر الرسول في سورة « الحجر » بأن ينذرهم . والإنظر هنا ، حسبما يقول الأستاذ الدكتور ، هو إعلامهم بأن الله سبحانه سوف يعاقبهم على ما اقترفت أيديهم في حق المسلمين الذين حدوا لهم الأخدود وأضرموا فيه الليران وأحرقوهم فيه أحياء . فهذا ، في رأيه ، هو معنى إنذار الرسول عشيرته لا مجرد تبليغهم بالدين الجديد ودعوتهم إلى الدخول فيه . وعنده أن زعيم بنى عبد المطلب

(١) وفي القرآن الكريم أن روحا عليه السلام قد تبع الأسلوبين معا : السرى والعلنى في دعوة قومه إلى الإيمان (نوح / ٩١) .

الذى أمرهم بشق الأخدود وإلقاء المسلمين فيه بعد إضرامه بالنار هو أبو لهب ، الذى ورد ذكره فى سورة خاصة به فى القرآن ، والذى تعود تسميته بهذا اللقب إلى تلك الحادثة^(١) . ولست أستطيع أن أدري من أين جاء الأستاذ بهذا التفسير الغريب الذى لم يذكره أى شخص من قبل لا من المؤرخين ولا من كتاب السيرة ولا من رجال الحديث ولا من الأدباء أو الشعراء . ثم لماذا لم يقل القرآن إن أبا لهب هو رعيم أصحاب الأخدود ؟ كذلك فمن عادة القرآن ، إذا كان الإندار بعقاب على جريمة معينة ، ألا يكتفى بذكر الإنفلر مجردا كما فى آيات التى نحن بصدددها بل يذكر معه العقاب الذى يهدد به ، مثل : ﴿ فأنذرتكم نارا تلظى ﴾^(٢) ، ﴿ إنا أنذركم عذابا قريبا ﴾^(٣) ، ﴿ وأنذركم يوم الآفة إذ القلوب لدى الحاسر كاطمين ﴾^(٤) ، ﴿ وأنذر الناس يوم يأتهم العذاب ﴾^(٥) . إلخ . ألا يرى الأستاذ الدكتور أن لدعاء هذا الذى لا يسده القرآن هو خروج على المنهج الذى أعلنه فى بداية بحثه ، وهو الاعتماد على القرآن فى كشف أخطاء ابن إسحاق ؟

إن كتب التفسير والتاريخ والسيرة تشير ، عند تعرضها لهذه الحادثة ، إلى ملك قديم (من العرب أو من غيرهم) كان يصطهد طائفة من

(١) المرجع السابق / ٦٠ ، ٨٦ ، ١٢١ ، ١٢٣ ، ١٢٤ .

(٢) الليل / ١٤ .

(٣) النبأ / ٤٠ .

(٤) عامر / ١٨ .

(٥) إبراهيم / ٤٤ .

رعاياه آمنوا بدين غير الدين الذي كان يعتقه هو ورجال دولته فأصرم لهم نارا في حفرة ورمى بهم فيها عقابا لهم على انشقاقهم على دين الدولة الرسمي . وهذا تفسير مقبول جدا ، ولكن على أن يفهم أن الصاري المضطهدين في هذه القصة كانوا من الموحدين لا من أهل التلث ، وإلا لما وصفهم الله بـ « المؤمنين » .

ورداً على قول ابن إسحاق إن قيم الرسول إنما اشتدت هداياتهم له ^(١) لما ذكر آلهتهم وعابها بقول د. مراد إن القرآن كان قد ذكر قبل ذلك في سورة « النجم » اللات والعزى وماء وعابها ، فكيف لم يعادوه في حبسها ؟ ثم إن القرآن منذ البداية يدعو إلى الوجدانية ، وهي على عكس الوثنية على طول الخط ، كما أنه يهاجم الأصنام على الدوام نلميحاً أو تصريحاً^(٢) وفي الجواب على هذا نجب أن نذكر بأن قرشا كانت تؤمن بالله وأنه هو الذي خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر ... إلخ كما ورد في القرآن الكريم نفسه ، وكذلك ينبغي ألا ننسى أن اختصار دعوة الرسول في بداية أمره على المقربين منه قد حبه الاحتكاك الحاد بقريش، ولكنه عندما انتقل من الصرية إلى العلل احتلف الموقف ، وبخاصة بعد أن بدأ هجوم القرآن على الأصنام أما بالنسبة إلى قول د. مراد إن دعوة القرآن إلى التوحيد هي هجوم غير مباشر على الآلهة ، فلا شك أن للهجوم الصريح وقفاً أقوى في النفوس وأكثر استفزازاً للمعدوات . أما آيات سورة « النجم » فمن قال إنها برلت

(1) La Biographie du Prophète, pp. 94 - 95

قبل أن يصدع الرسول بدعوته وميِّب ألھتهم ؟ وعلى أية حال فإن ابن إسحاق لم يتعرض لهذه الآيات ، وعلى هذا فلا يمكن محاسبته بشأنها . أما في الطبري فإنها لم تنزل بعد أن صدع الرسول بدعوته فقط بل بعد أن هاجر المسلمون إلى الحبشة بزم^(١) ، وقد ورد اسم ابن إسحاق عنده في سلسلة السند الخاصة بإحدى روايتي قصة العرائق والآيتين المزعومتين اللتين قيل إنهما سمعا عقب تلاوة النبی لقوله تعالى : ﴿ واللات والعزى ﴾ ومناة الثالثة الأخرى^(٢) ، ثم به جبريل محمداً عليه السلام إلى العيث الشيطاني الذي كان وراء سماعهما . وقد نسبت آيات سورة النجم في مريد من الأدی للمسلمين كما هو معروف .

(١) انظر تاريخ الطبري / تحقيق محمد أبو الفصّل إبراهيم / ط ٤ / دار المعارف / ٢ / ٣٢٧ - ٣٤١ .

(٢) ونسبهما : « إتهن العرائق الملا » وإن شفاعتهن لترتجى » ، وهما الآيتان اللتان أدار عليهما سلمان رشدي روايته « The Satanic Verses » . وقد سبق أن درّست قصة هاتين الآيتين المزعومتين ويُنسب لهما لا تمتان إلى القرآن بأدنى صلة في كتابي : « مصدر القرآن - دراسة لشبهات المشرقين والمبشرين حول الوحي المحمدي » / مكتبة زهراء الشرق / ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م / ٣٠ - ٤٣ ، و « ماذا بعد إعلان سلمان رشدي لويته ؟ دراسة فنية وموضوعية للآيات الشيطانية » / المطبعة السمودجية / ١٤١٢هـ - ١٩٩١م / ٢٢٦ - ٢٤٧ ثم توسعت بعد ذلك في تعيد هذه القصة في كتابي « دائرة المعارف الإسلامية الاستشرافية - أساطير وأباطيل » ، الذي تعاقبت على إصداره مع أحد الناشرين مد أكثر من ثلاث سنوات وراجعت تجربتي طبعه الأولى ولكنه لم يصدر بعد .

ويأخذ د مراد على ابن إسحاق أنه ، في رسمه للفترة المكية السابقة على وفاة أبي طالب ، يجعل الصدارة لذلك العم بحيث تكشف منه نور النبي عليه السلام . أليس هو حاميهِ ؟ أليست قريش تلجأ إليه كلما جذ سب من أسباب الشكوى من ابن أخيه ؟ ألم يجد ابن إسحاق النبي عليه الصلاة والسلام من الرهبة التي يضيفها عليه القرآن ومن دعم المسلمين له ^(١) بيد أننا نتساءل بدورنا : ومادا كان على ابن إسحاق أن يفعل ؟ أكان ينبغي عليه أن يربف وقائع التاريخ ؟ إن قريشا لم تكن تبالي بمحمد وبدعوته بل كانت تسحرته أيها سحرية كما ذكر القرآن الكريم نفسه ، فكانوا يتهمونه بأنه ساحر وكاهن ومجنون وبأن بشرا يعلمونه القرآن ، كما كانوا يتصمرون شأنه لأنه ليس من أعتياتهم . وكانوا كلما هموا به تذكروا أبا طالب ، الذي يحظى باحترام قريش ، فيذهبون إليه ويشكونه له ويحاولون إيعار صدره عليه حتى يستطيعوا الانفراد به وإيذاؤه دون أن يهبط أحد من عشيرته لنجدة . ومن هنا كان لا بد لابن إسحاق من أن يذكر أبا طالب كثيرا ، لكنه في ذات الوقت لم يحدث أن ذكره مرة دون أن يذكر معه الرسول ﷺ لأنه هو محور تلك اللقاءات التي كانت تتم بينه وبين رجالات قريش . ثم لقد ذكر ابن إسحاق أن رسول الله ظل ماضيا على أمر الله مظهرًا له لا يرد شيء عن هذه العاية رغم دهابهم إلى عمه وشكايتهم إياه له ، وأن الأمر قد اشتد بينه وبينهم وحض بعضهم بعضًا ضده وهو لا يزال ، ثم ذهبوا إلى أبي طالب مرة أخرى وكرروا شكواهم من لهن أخيه وتركوه هذه المرة وهو

حيران موزع النفس بين حرصه على ألا يكسب عداوة قومه وحرصه في نفس الوقت على ألا يسلّم ابن أخيه لهم . وكانت النتيجة أن أرسل إلى ابن أخيه وعرض عليه ما دله في نفسه ورجله ألا يحمل من الأمر ما لا يطيق ، لكن كان موقف الرسول حاسماً ، إذ ردّ عليه بجمع ثقته قائلاً : « يا عم ، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته » (١) . فكيف يقال إن محمداً لم يظهر في صدارة الصورة التي رسمها ابن إسحاق لهذه الفترة ؟ لقد رأينا أنها طالب حائراً يريد أن يمسك العصا من الوسط ، أما محمد فلم يكن عنده إلا موقف واحد وقول واحد هو المضي في طريقه وعدم المبالاة بأهواء قومه ولا بالإبذاء الذي كانوا ينزلونه به وبالمسلمين . على أن هذا ليس كل شيء ، فقد انفرد زعماء الشرك برسول الله ذات مرة في الكعبة فأخذوا يسخرون منه كالعادة ، والرسول ساكت في بداية الأمر ، لكنه في النهاية انعجر فيهم مهدداً بقوله : « أسمعوني يا معشر قريش ؟ أما والذي نفسي بيده لقد جئتكم بالذبح » ، فاجتمعهم هذا الرد وأنزلهم ، حتى إذا أفاقوا من المباغة أخذوا يسترضونه بلبّين القول . ثم إنهم اجتمعوا في العدة في ذات المكان مرة أخرى وأنشأوا يدكرون ما وقع بينهم وبينه بالأسس ، حتى إذا طلع الرسول عليهم أحاطوا به وهددوه وأرادوا خنقه من مجمع رذائه وهو رابط الجأش يردد : « نعم ، أنا الذي أعيب أهلكم ودينكم » وقد

ضربوا أبا بكر يومها ضرباً مبرحاً لأنه حاول الدفاع عن رسول الله ﷺ^(١) وهناك أمثلة أخرى مثل هذه ، فكيف يقال إن الرسول لم يظهر في صدارة الصورة التي رسمها ابن إسحاق لتلك الفترة ؟ ولا سر أن أبا طالب قد مات ، عبد ابن إسحاق ، على دين قومه ، وعيشا حاول العباس أن يقنع الرسول عليه السلام أن أحياه قد نطق بالشهادتين وهو وجود بنفسه الأخير ، إذ كان رده ﷺ أنه لم يسمع شيئاً . وقد ذكرنا ذلك بالتفصيل في موضع آخر من كتابنا هذا .

أما استعراب د. مراد أن قريشا لم تقف مثل هذا الموقف من أي مسلم آخر ولا حتى جعفر بن أبي طالب نفسه^(٢) ، فيمكن القول في الرد عليه إن الرسول كان هو زعيم الدين الجديد الذي رأوا فيه تهديداً لمصالحهم وإساءة لآلهتهم وطمناً في تقاليدهم ، ولذلك ركزوا الهجوم عليه . وهذا هو المشاهد عادة في مثل تلك الأحوال ، ولا فلم اغتيل تروتسكي وحسن البنا مثلاً وليس أحداً من أتباعهما ؟ إن أعداء الدعوة الجديدة يعتقدون أنهم إذا ما تخلصوا من الرأس الكبير فيها تم لهم القضاء على الأتباع والدعوة كلها تلقائياً دون جهد يذكر . ومع ذلك فعندما هاجر بعض المسلمين إلى الحبشة واستقلوا عن زعيمهم وبدا أن من الممكن تحويلهم إلى مصدر أصلي لنشر الدعوة هناك رأينا قريشا ترسل في إثرهم ببعض رجالها لمفاوضة التجاشي أملاً في أن يعيدهم إليها لتفتنك بهم على الحق الذي تريد . وإذا كان جعفر قد هاجر مع

(١) ابن هشام / ١ / ٢٥٩ .

(2) La Biographie du Prophète , pp. 115 - 116

المهاجرين فهذا لا يعنى بالضرورة عجز والده عن حمايته ، ومن ثم فلا موضع لتساؤل الأستاذ الدكتور عن السرّ فى تركه مكة ما دام هذا الوالد كان يستطيع حماية الرسول ^(١) ، إذ من الممكن جدًا أن يكون جعفر قد أراد أن يشارك إخوانه المستضعفين مصيرهم تعبيرا عن حبه لهم ورفعاً لروحهم المعنوية ^(٢) . وقد يكون الرسول هو الذى طلب منه أن يرافقهم ليكون يسهم من يمثله من أهل بيته فى بلاط الجاشى ، الذى لجأوا إليه ليسطو عليهم حمايته ولعلّ هذا هو السبب فى أن جعفرا ، رضى الله عنه ، كان آخر المسلمين رجوعاً من بلاد الأحباش ^(٣) ، وكان هو الناطق بلسانهم أمام الجاشى وبطارقته فى ذلك اليوم المشهود الذى جمع فيه الملك الحبشى بينهم وبين رسولى قرش ليسمع ما يقوله كل من الطرفين فى حضور الآخر ^(٤) .

(١) المرجع السابق / ١١٧ .

(٢) وذلك مثلما فعل عثمان بن مظعون ، الذى كان فى حماية الوليد بن المغيرة لكنه استكف أن يمشى فى مكة أمّا عظمتا فى الوقت الذى يسام فيه إخوانه المسلمون العذاب ، فذهب إلى الوليد وشكره وطلب منه أن يعفيه من هذه الحماية مؤثرا بذلك مشاركة إخوانه فى البلاء ، الذى ما لبث أن أنهى عن التوّ والنحلة . وهذا حاول الوليد أن يدخله فى حمايته مرة أخرى ، إذ رأى أن الاستزادة من هذا البلاء أفصل من العيش فى أمان دون سائر إخوانه (انظر مثلاً : معارى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لعروة بن الزبير ١٠٩٧ - ١١٠) .

(٣) وقد قال المرحوم محمد عزة دروزة بمثل هذا من قبل (انظر كتابه : سيرة الرسول - صور مقتبسة من القرآن الكريم وتحليلات ودراسات قرآنية : / عيسى البابى الحلبي / ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٥ م / ١ / ٢٧٢) .

(٤) وللدكتور إبراهيم عوض تعليق آخر لخروج جعفر مع المهاجرين إلى الحبشة ، وهو أنه خرج داعية لا فراراً من الأذى (انظر مقاله : سيرة ابن هشام وإتصاف الحقيقة بمجلة : الهلال ، / مايو ١٩٩٨ م / ١٢٠ - ١٢١) .

إن الأستاذ الدكتور يؤكد أن بنى هاشم هم الذين دفعوا جمعاً دفعاً إلى الحبشة بتمديهم إياه وأنهم هم الذين كانوا يمثلون الخطر الأكبر على النبي عليه السلام وعلى دينه ^(١) وليس أباً لهب وحده ، الذي يدعى المؤلف أن ابن إسحاق ، عمالةً منه للعباسيين ، قد أراد التضحية به دون سائر بنى هاشم وبنى المطلب بوصفه استثناءً شاذاً يؤكد القاعدة المتعثلة في جهم للرسول وحديهم عليه وحمايتهم له ولدينه ^(٢) .

لكن أكان القرآن سيكت عن بنى هاشم فلا يذكرهم بسوء ولا يهددهم بجهنم كما فعل مع أبي لهب ؟ ثم ما الذي منع ابن إسحاق ، ما دام جريماً في كذبه وتلاعبه بالتاريخ إلى هذه الدرجة ، أن يجعل أباً لهب أيضاً من حماة النبي عليه السلام بحيث تكون صورة بنى هاشم وبنى المطلب جميعاً دون أي استثناء صورة بيضاء نقية تامة البياض والنقاء ؟

ويعني د. مراد قائلاً إن ابن إسحاق لم يذكر لأبي لهب من المواقف المعادية لابن أبيه ودينه ما يسوغ نزول سورة « المد » فيه ^(٣) . والحق أن ابن إسحاق قد أورد عدة مواقف لأبي لهب كلها تنصح بالمداورة والبغضاء والسفاهة ، فقد كان هو الوحيد من دون بنى هاشم الذي ردّ على الرسول رداً وفحاً يوم جمعهم ﷺ ليلعلمهم دعوته عقب

(1) La Biographie du Prophète , p 119

(٢) المرجع السابق / ٢٨٨ .

(٣) السابق / ١٢٠ - ١٢١ .

نزول الوحي عليه أن «أندُرْ عشيرتك الأقربين» ، إذ صاح فيه قائلا:
 «نَبَأُ لَكَ سَائِرُ هَذَا الْيَوْمِ أَ لَكُنْهَذَا جَمَعَتَا ١٩» . كما أنه هو وزوجته كانا
 يُلْقِيَانِ الشُّوْكَ فِي طَرِيقِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَبِشْتِمَانِهِ ، وَدَفَعَا ابْنَهُمَا لِتَطْلِيْقِ
 بَنْتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَكَفَّلَكَ ذَكَرُ ابْنِ إِسْحَاقَ أَنَّ أَبَا لَهَبٍ هُوَ
 الْوَحِيدُ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ الَّذِي لَمْ يَنْشُقْ عَنْهُمْ عِنْدَمَا حَاصَرْتَهُمْ قُرَيْشٌ فِي
 شَعْبِ أَبِي طَالِبٍ . وَالْدَكْتُورُ مُرَادٌ يَهْدَفُ مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ إِلَى الْقَوْلِ بِأَنَّهُ
 لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ هَآكِ سَبَبٌ لِرُؤُوسِ الْوَحْيِ بِهَذِهِ الْآيَاتِ الْعَمِيقَةِ فِي حَقِّ
 أَبِي لَهَبٍ ، وَهَذَا السَّبَبُ فِي رَأْيِهِ هُوَ مَا سَبَقَ أَنْ ذَكَرْنَاهُ مِنْ أَنَّهُ هُوَ الَّذِي
 تَوَلَّى كَيْفَ تَخْدِيدِ الْأَحْدُودِ لِإِحْرَاقِ الْمُسْلِمِينَ أَحْيَاءً وَقَدْ مَرُّنَا ذَلِكَ

وَكَيْدِيْدُنْ د . مُرَادٌ فِي تَكْذِيبِ مَعْظَمِ وَقَائِعِ السِّيَرَةِ النَّبَوِيَّةِ بِرَافِضٍ مَا
 جَاءَ عَمْدُ ابْنِ إِسْحَاقَ عَنْ هِجْرَةِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الْحَبْشَةِ وَمُطَارَدَةِ الْمُشْرِكِينَ
 لَهُمْ وَالْمُوَاجَهَةِ الَّتِي تَمَّتْ فِي بِلَاطِ الْجَاشِي بَيْنَ رَسُولِي قُرَيْشٍ
 وَالْمُهَاجِرِينَ وَدَوَّرَ جَمْعُهُمْ بَيْنَ أَبِي طَالِبٍ فِي ذَلِكَ وَإِسْلَامِ الْجَاشِي بَعْدَ
 سَمَاعِهِ الْآيَاتِ الْأُولَى مِنْ سُورَةِ «مَرْيَمَ» . أَمَّا الصَّوَابُ فِي رَأْيِهِ فَهُوَ أَنَّ
 قُرَيْشًا هِيَ الَّتِي نَفَتْ هَؤُلَاءِ الْمُسْلِمِينَ نَفْيًا وَأَرْسَلَتْ مَنْ يَحْفَرُهُمْ إِلَى بِلَادِ
 الْحَبْشَةِ بَعْدَ الْإِنْفَاقِ مَعَ بَعْضِ السُّلْطَانِ الْمَحَلِّيَةِ هَآكِ عَلَى وَضْعِهِمْ فِي
 مَعْسَكَرَاتِ اعْتِقَالٍ وَتَسْلِيْطِ الْوَلَانِ الْإِيْلَاءِ عَلَيْهِمْ ^(١) أَمَّا مَنْ أَرَى أَنَّ
 الْأُسْتَاذَ الدَّكْتُورَ بِهَذَا وَعَلَى أَيْ أَسَاسٍ قَالَهُ فَذَلِكَ لَا يَهْمُ الْمُهْمُ هُوَ
 التَّكْذِيبُ وَالسَّلَامُ ، وَلَا عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّ الْقُرْآنَ لَمْ يَذْكُرْ شَيْئًا مِنْ هَذَا

(١) السابق / ١٢٦ - ١٢٧ ، ١٢٩ - ١٤٤ .

الذى يقوله ولا آيا من كتب التاريخ فى أى عصر من العصور . وإنما
لنتساءل : إذا كان ابن إسحاق قد أراد بمالأة العباسيين (مع أن جمعوا
كان من أبناء أبى طالب لا من أبناء العباس ، وقد كان بين العباسيين
والطالبين ما طرق الحداد بعد توليهم السلطة إثر القضاء على دولة بنى
أمية كما ينا قبلا) ، فكيف ذكر عروة بن الزبير وابن شهاب الزهري
وابن حزم ، الذين كانوا يعيشون تحت سلطان الحكم الأموى ، هذا
الذى قاله ابن إسحاق ولم يقولوا بما يدعى الأستاذ الدكتور أنه هو الذى
وقع ؟ أو كيف سكنت المسلمون جميعاً على أكاذيب ابن إسحاق
ونفاقه فلم يحاول أحد منهم طوال تلك القرون المتطاولة أن يهتك زيفه
وأخاذه ؟ أو كيف تقبل المستشرقون ما قاله ابن إسحاق ، وكثير منهم ،
كما نعلم ، يترجمون بتاريخنا ورجالنا ويعملون بكل وسيلة على
التشكيك فى هذا التاريخ وأبطاله ؟ ثم لماذا يثنى المسلمون على النجاشي
ويمدحونه وينسبون إليه كل هذا الفضل إذا كان بذلك السوء الذى
يزعمه الأستاذ الدكتور ؟ أبغقل أنهم ، بدلا من أن يفضحوه أو يفضحوا
السلطات المحلية التى تمثله فى المكان الذى وُضع فيه المسلمون فى بلاده
رهن الاعتقال وتعرضوا لصنوف الأذى والعدوان ، يرسمون له صورة
كريمة عظيمة تضعه فى أعلى عليين ؟ إن هذا والله لهُو الحبل بعينه ،
وحاشا للمسلمين الأوائل أن يكونوا بهذه البلاءة ! ثم ماذا نقول فى أن
النجاشي قد ناب عن الرسول عليه السلام فى عقد قرانه على رملة بنت
أبى سفيان ؟ ولم حرص ابن إسحاق ، المتهم بمصافقة بى العباس وتشويه

اتقارح من أجل سواد عيونهم ، على أن يذكر ، على الأقل في هذا السياق ، زواج السى صلى الله عليه وسلم من بنت أبى سفيان زعيم الأمويين ، الذين كان بينهم وبين العباسيين عداوات وثارات وحروب رهيبة انتهت بتفويض دولتهم وإقامة دولة بنى العباس على أنقاضها ، وبخاصة إذا تذكرنا أن السى عليه الصلاة والسلام لم يتزوج من أية هاشمية لا من بيت العباس ولا من بيت أبى طالب ؟ ثم كيف خالف ابن إسحاق مسجده المزعوم الذى أسنده إليه د. مراد فى السبل من المكين بكل سبيل وتشويه صورته فلم يذكر ، كما ادعى الأستاذ الدكتور ، أنهم هم الذين نفوا المسلمين من وطنهم ودفعوا الأموال للأحباش لكي يحسروهم فى معسكرات اعتقالٍ ومعتبرهم ؟ ثم إذا كان القرشيون بهذه القوة وهذا التنظيم ويستطيعون السيطرة على العشوات من المهاجرين طوال الطريق البرى من مكة إلى الميناء الذى سيفادرون فيه الجزيرة العربية وكذلك طوال الطريق البحرى من ذلك الميناء إلى ميناء الوصول فى أرض النجاشى ، فكيف لم يقضوا عليهم فى مكة أو يحرقوهم فى البحر الأحمر ويوحوا ويستريحوا بدل كل هذا العناء وتضييع الوقت والأموال ، وهم والحمد لله لا يتقصهم الضمير القاسى والقلب المتحجر الذى لا يرق ولا يبالى ؟ ألم يخفوا الأعداء من قبل للمسلمين ويحرقوهم أحياء دون أن تهتر لهم نفس أو يطرف لهم جفن ؟ ثم لماذا اكتفوا بنفى بعض المسلمين فقط وتركوا الباقين ؟

ونأتى إلى جعفر وقول الدكتور الفاضل إن ابن إسحاق قد عمل على تضخيم صورته وتفخيمها بجعله السبب في إسلام النجاشي^(١) ، الذى لا يصدق الأستاذ الكاتب أنه قابل جعفرا أو أيًا من المهاجرين ، إذ وصعوا منذ وطئت أقدامهم أرض الحبشة في معسكرات اعتقال أعدتها إحدى السلطات المحلية هناك كما يقول . والواقع أن ابن إسحاق لم يحضر في جعفر رحمه الفضل في الموقف الذى وقفه أمام النجاشي ولا فى الشرح الذى قام به لعقيدة الإسلام ومبادئه بل عمّ به المسلمين المهاجرين جميعاً ، إذ ذكر أنهم ، حينما بعث إليهم النجاشي للعثول فى حضرته ومواجهة ما يقوله رسولا قريش فى حقهم ، قد اجتمعوا ثم قال بعضهم لبعض : ما نقولون للرجل إذا جئتموه ؟ قالوا : نقول

(١) يقوم تنكيك الأستاذ الدكتور هنا على أن ابن إسحاق قد جعل جعفرا هو المتحدث بلسان المسلمين أمام النجاشي لأنه من بنى هاشم ولم يجعله عثمان بن عفان لكونه من بنى أمية (ص ١٤٢) ، وكأنه كان على ابن إسحاق أن يزيغ التاريخ حتى لا يشك فيه الأستاذ المؤلف ، مع أنه لم يعرف عن عثمان براعة فى مواجهة الجمهور . كما أن شخصية جعفر البطولية ومقدرته على القيادة تلتصق بلبنا فى عزوة نبوك وأكسبه مجد الشهادة مما يقوى ما جاء فى سيرة ابن إسحاق . ولو كان ابن إسحاق يريد العز من مكانة عثمان بسبب أمويته ، فكيف لم يتجاهل أنه كان من السابقين إلى الإسلام فى وقت كانت فيه ظروف السى وديه فى غاية الصعوبة والخرج ؟ ولماذا ذكر رواج عثمان من قشتى من بنات الرسول رضى الله عنهما ؟ ولم أبرر أبداً إتباعه السخى الهائل فى تجهيز جيش العمرة ؟ وقد نكلنا عن هذا بشيء من التفصيل فى غير هذا الموضع من كتابنا .

والله ما علمنا وما أمرنا به نبي صلى الله عليه وسلم كائناً في ذلك ما هو كائن . وكل ما انفرد به جعفر هو أنه قد تحدث باسمهم فذكر ما اتفق الجميع عليه لا ما طرأ على خاطره وحده . وقد تكرر الأمر نفسه في الاجتماع التالي الذي تم في العدد وأياً ما يكن الحال فإن ابن إسحاق لم يذكر أن جعفراً قد دعا الجاشي إلى الإسلام ولا فكر في ذلك ولا خطر له ببال ، وإنما الذي حدث هو أن ما اتفق المسلمون هناك على أن يلفه بهاء جعفر قد وقع من نفس ذلك الملك موقعا حسنا فآمن به وبالسبي الذي أنزل عليه ^(١) . فأي محاولة ابن إسحاق النصيحة من شأن جعفر هنا على حساب سائر المهاجرين ؟ على أن هناك دوراً آخر مهماً قام به أحد المسلمين ، وهو السباحة في الليل للاقترب من المعسكرين المتصارعين في الحنشة على الحكم آتد ، وهما النجاشي والثائرون عليه ، إذ كلف المسلمين الزير بن العوام ، وكان من أصغرهم سناً ، أن يربط قرية في صدره ويحوم بها إلى الشط الثاني حيث تدور المعارك حتى يعرف من الفائز منهما ، وذلك تحسباً لما يجدر من أمور قد يكون أثرها عليهم بالغ السوء في حالة انتصار معسكر الثائرين ^(٢) . ولا شك أنها محاطرة عظيمة تلك التي أقدم عليها الزير ، الذي لم يكن يعرف السباحة فيما هو واضح من القصة والذي كان يمكن أن يشير الشبهات

(١) انظر سيرة ابن هشام / ١ / ٢٩٠ - ٢٩١ ، ٢٩٣ - ٢٩٤

(٢) المرجع السابق / ١ / ٢٩١ - ٢٩٢ .

عند المتحاربين ويعرض من ثم للهلاك . ومع هذا فقد جعل ابن إسحاق من الزبير بطلها ولم يجعله جعفرا . فما القول في هذا ؟ وماذا نقول كذلك في كتب الأحاديث النبوية ، وقد ذكرت هي أيضا « هجرة » المسلمين لا « نفيهم » إلى الحبشة ، كما ذكرت إسلام النجاشي وصلاة الرسول عليه ؟ ^(١) أما استغرب د . مراد أن يذكر جعفر للنجاشي شعيرة الصيام ضمن ما جاءهم به الرسول رغم أن الصيام لم يكن قد فرض بعد ، فمن الممكن أن تكون هذه غلطة في الرواية لا تقدح في صحة وقائع الهجرة ، أو قد يكون الرسول قد لفت المسلمين في مكة إلى أهمية الصيام بوجه عام دون أن يكون هناك وحى يفرضه عليهم . ومن المعروف أن الرسول والمسلمين كانوا يصومون عاشوراء منذ المرحلة المكية ، بل كان القرشيون يصومونه هم أيضا في الجاهلية ^(٢) .

وأخيرا لعله من المناسب أن نورد هنا ما قاله الخبيث مرجليوث في نهاية روايته لهذه الهجرة (بما فيها مثل جعفر بن أبي طالب بين يدي النجاشي في حضور رسولي قريش وقراءته صدر سورة مريم ، وإن زعم أن النبي كان قد أعد هذه الآيات من قبل إعدادا لمثل هذا الغرض) ، إذ كتب مؤكدا أنه « مهما يكن الأمر فمن الحق الذي لا مِرَّة فيه أن

(١) انظر مثلا : صحيح البخاري ١ / عيسى الباني الحلبي ٢ / ٢٢٥ - ٢٢٦ ،

و ٣ / ٥٣ - ٥٤

(٢) المرجع السابق ١ / ٢٢٣ ، و ٢ / ٢١٧ .

الجاشي قد اتخذ جانب محمد ضد قريش وظل صديقا محلصا له حتى وفاته ، وأنه عندما تكللت جهود محمد بالنجاح (يقصد نجاحه في إقامة دولة للإسلام بالمدينة) قام بإعادة المهاجرين إليه ودفع من جيبه مهر إحدى زوجاته المتعتقات (يشير إلى أم المؤمنين رمة بنت أبي سفيان رضى الله عنها) ^(١) . وقد استشهدت بمرحليوث بالذات لما هو مشهور عنه من حب طويته وكبده السافر الوقع للإسلام وبنصره الملتهب للنبي عليه الصلاة والسلام .

والدكتور مراد ، كما أوضحنا آنفا ، يتهم ابن إسحاق بالتعصب للمدينة وأهلها مما قد ردّنا عليه وبما افتقاره إلى أساس يستند إليه ، ومن هنا نراه يدّعي أنه كانت هناك هجرات أخرى إلى غير يثرب من مناطق الجزيرة العربية وأن ابن إسحاق قد عثم عليها حتى لا يكون هناك

-
- (1) D. S. Margoliouth, *Mohammed and the Rise of Islam*, 3rd edition, G. P. Putnam's Sons, New York & London, 1905, pp. 158 - 161 وانظر أيضا مور (William Muir) ، الذى يورد قصة المهاجرين إلى الحبشة، وإن حاول أن يشكك في بعض التصيلات الثانية (The Life of Muhammad from the Original Sources, pp. 19 - 93 , 383) وكذلك درسم (Emile Dermenghem) في " La Vie de Mahomet " (Librairie Plon, Paris, 1929, pp. 114 - 117) وجرير (Virgil Gheorghiu) في كتابه الذى ترجمته ليلى لامور إلى الفرنسية " La Vie de Mahomet " (Librairie Plon, 1970, pp. 120 - 125)

مزاحم لأهل المدينة في الفوز بشرف نصرة الإسلام والتلقب باسم
« الأنصار » (١).

وهذه أيضا من الخيالات الغريبة التي لا صلة بينها وبين البحث
العلمي ، وإلا فلماذا سكّ هؤلاء المهاجرون فلم ينسوا بنت شقة عن
هجرتهم تلك ، وهي فخر روسام على صدورهم ؟ ولماذا سكّ كذلك
سكان هذه المناطق فلم يذكروا أنهم آووا ونصروا من التجأ إليهم من
مسلمى مكة المضطهدين ؟ ولين أشعارهم في هذا ؟ أم نراهم لم يكونوا
يمرفون الشعر ولم يكن يسهم شعراء كما كان في يثرب شعراء يفتخرون
بنصرتهم للإسلام وهجرة الرسول إليهم ؟ أم سيقول الأستاذ الدكتور إن
ابن إسحاق قد أحرق هذه الأشعار حتى لا تفضح كذبه وعيئه بالسيرة
الجبوية ؟ الحق أن ليس لهذا كله من معنى إلا أن التاريخ السبوي كله
كذب في كذب ، وحاشا لله أن يكون الأمر كذلك ، ولا حقت لعنة
الكذب ، بل الكذب والعباء ، على أمة محمد في جميع العصور ،
والعياد بالله انم إن كلمة « الأنصار » بالألف واللام (وهي المقابلة لكلمة
« المهاجرين ») لم تظهر إلا في الوحي المدني (٢) ، ومن الواضح قطعاً أن
المقصود بها سكان المدينة . ومثلها في ذلك عبارة « الذين آووا
ونصروا » ، التي تكررت مرتين في القرآن (٣) . ولم يمس الله عني

(1) La Biographie du Prophète , p. 147

(٢) في الآيتين ١٠٠ و ١١٧ من سورة « التوبة » .

(٣) في الآيتين ٧٢ و ٧٤ من سورة « الأنفال » .

المسلمين بأنه آواهم وأيدهم بنصره بعد أن كانوا قليلين مستضعفين في الأرض يحافون أن يتخطفهم الناس (كما جاء في سورة « الأنفال ») إلا عد الهجرة إلى المدينة المنورة . كذلك هالسة البويرة ، حينما تحدث عن أية هجرة إلى غير الحجة ، إنما تقصد الهجرة إلى المدينة ، وهذا معروف لا سبيل إلى الجدل فيه .

ونمضي مع تشكيكات الأستاذ الدكتور التي لا نكاد تنتهي فنجد ، يشكك في حقائق الحصار الذي ضربته قريش حول بني هاشم لحيلولتهم بينها وبين إلهاء محمد ، قائلاً إن الحصار إنما كان ضد المسلمين وحدهم دون غير المسلمين من بني هاشم ، الذين اشتركوا كلهم (لا أبو لهب فقط) مع سائر قريش في تلك المقاطعة الموجهة ضد مسلمي مكة جميعاً كما أشرنا . أما لما قال ابن إسحاق إن سائر بني هاشم ، رغم عدم إسلامهم ، قد صلّوا مع الرسول ومن أسلم منهم نار الحصار ، فذلك راجع في رأي الأستاذ الباحث إلى أن ابن إسحاق قد أراد التقرب إلى بني العباس بالإعلاء من شأن أسلافهم بني هاشم . وهو يتساءل أيضاً تساؤل المستعرب : ألم يستطع أحد ممن يهمهم أمر المحاصرين أن يهرب إليهم طعماً ؟ ^(١) وقد قلت الأستاذ الباحث أن نفراً من قريش ممن كان يهمهم أمر المحاصرين من بني هاشم وتعاظمون معهم كانوا يكسرون الحصار فيأتونهم بالطعام سراً . وقد انكشف أمر بعضهم كما

(1) La Biographie du Prophète, pp. 146 - 149

حدث لحكيم بن حزام بن خويلد بن أسد، الذي حمل إليهم هو ورجل آخر قمحا فلقبه أبو جهل في الطريق إلى الشعب الذي كانت بنو هاشم محصورة فيه فاشتبك معه ، وتدخل قريش لحكيم وضرب أبا جهل بالخي بيير^(١) . ومن كانوا يكسرون الحصار أيضا هاشم بن عمرو بن ربيعة بن الحارث ، الذي كان يوفر البحر بالطعام أو الثياب ثم يأتي به ليلاً إلى فم الشعب فيضربه على جنبه ويطلقه فيدخل على المحاصرين بما عليه من أحمال . ثم لحق به في ذلك التصرف النبل زهير بن أبي أمية بن المغيرة الخزومي والمطعم بن عدي والبختری بن هاشم وزمعة بن الأسود ابن المطلب بن أسد ، وفكر الجميع في نقض الصحيفة التي كتبتها قريش في مقاطعة أقاربهم من بني هاشم وبني المطلب^(٢) . وواضح أن عدد الذين عملوا على كسر للمقاطعة خمسة وليسوا واحداً فقط كما وهم د. مراد ، الذي لم يذكر من هؤلاء إلا هشام بن عمرو الماز ذكره^(٣) . ثم إن هؤلاء الخمسة ، كما هو مفهوم ، ليسوا من بني هاشم . ولو كان ابن إسحاق يروي حق التاريخ كما يشتق عليه الأستاذ الدكتور فلم أسند فصل كسر للمقاطعة ونقض صحيفتها إلى نفر من غيرهم جاعلاً لهم بذلك يداً على بني هاشم وبني المطلب ؟ لماذا لم يقل مثلاً إن نفراً من بني هاشم أنفسهم قد ثاروا على قريش وتحذروهم وحاربوهم وأرغموا أنوفهم في التراب ووضعوا بهذا حداً لتلك المقاطعة

(١) سيرة ابن هشام ١ / ٢ / ٤ - ٥ .

(٢) المرجع السابق ١ / ٢ / ١٧ - ١٨ .

(3) La Biographie du Prophète, pp. 146 - 149 .

اللاإنسانية ؟ وغنى عن القول أنه إذا كان ابن إسحاق لم يذكر إلا خمسة فقط ممن تحدوا المقاطعة فإن هنا لا يعنى بالضرورة أنه لم يكن هناك غير هؤلاء الخمسة . إذ إنه لم يكن يستقصي ، بل كل ما هنالك أنه ذكر ما بلغه . وقد تكون أسماء أخرى قد بلغت ولكنه نسيها ، أو يكون أراد التمثيل فقط لما حدث . كذلك لو كان بر هاشم جميعاً قد اشتركوا في ضرب الحصار على المسلمين فكيف لم ينزل وحى بذلك كما نزلت سورة « المسد » في أبي لهب وحده دونهم ؟ لم يسبق أن ابن إسحاق قد حذف الآيات التي شتمت عليهم ؟ مسكين ابن إسحاق هذا ! ما القول في أن عروة بن الزبير في « مغازيه » يذكر المقاطعة على نفس النحو الذي ذكرها به ابن إسحاق ؟ ^(١) وهو ما يصدق أيضاً على ابن حزم ^(٢) .

ومن تشكيكات د. مراد في كلام ابن إسحاق مجرد التشكيك تكذيبه إياه فيما قاله عن صلاة الرسول والمسلمين في المسجد الحرام ، إذ يدعى أن قرشا قد منعهم من دخوله ، وإلا فلو كانت تسمح لهم بذلك وتركهم يختلطون أثناء موسم الحج بالحجيج القادم من أرجاء الجزيرة بحيث يسمعون منهم آيات القرآن ويرونهم وهم يصلون ، فكيف كانت ستعلل لهؤلاء الحجيج الضغط الذي كانت تمارسه عليهم ؟ ^(٣)

(١) انظر كتابه « منازي رسول الله صلى الله عليه وسلم » ، ١١٤ / ١١٦ .

(٢) انظر « جوامع السيرة النبوية » ، ١ / ٩٢ - ٩٤ .

(٣) La Biographie du Prophète, p. 152, 373 - 374 .

وهنا أسرع فأذكر الأستاذ الباحث بأنه دائماً ما يتهم ابن إسحاق بالرغبة في تشويه قرش لصالح أهل المدينة ، فما الذى جعل ابن إسحاق هنا إذن يخرج عن خطته ويحالف ما درج عليه طوال السيرة كلها ؟ ثم إنى أحيله إلى القرآن الكريم ، فهل يستطيع أن يستخرج لى منه نصاً واحداً يشير إلى قيام قرش بصدّ المسلمين عن المسجد الحرام فى غير الوحي المدنى ، الذى قد يضاف إليه على أقصى تقدير الوحي للمكى السابق مباشرة على الهجرة أو الذى نزل والى فى الطريق إلى المدينة ؟ ولنجيبه مشقة البحث عن هذه الآيات هأنذا أوردنا له بنفسى ، وهى : ﴿ ولا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نَقُومَ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا ﴾ (١) ، ﴿ هم الذين كفروا وصدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ (٢) ، ﴿ وما لهم ألا يمتدِّهِمُ اللَّهُ وهم يصدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وما كانوا أولياءه ؟ ﴾ (٣) ، ﴿ إن الذين كفروا يصدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِى جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً لِلْعَاكِفِ فِيهِ وَالْبَادِ ، وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نَذَقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ (٤) ، ﴿ وصدُّ عَنْ سَبِيلِ وَكَفَر بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ (٥) . أفلو كان المشركون

(١) المائدة / ٢ . والإشارة فى الآية إلى منع للمشركين للمسلمين من تأدية العمرة فى حوزة المدينة .

(٢) التيج / ٢٥ . والإشارة هنا أيضاً إلى ما وقع فى المدينة .

(٣) الأنفال / ٣٤ .

(٤) الحج / ٦٥ .

(٥) البقرة / ٢١٧ .

يمنعون الرسول والمسلمين من دخول المسجد الحرام طوال المرحلة المكية
أكان القرآن سيصمت فلا يشير إلى ذلك في تلك المرحلة ؟ ثم ما رأى
الأستاذ الدكتور في أن القرآن الكريم يذكر بصريح القول أن الإسراء
بالرسول^(١) تم من المسجد الحرام بما يفيد أنه عليه الصلاة والسلام كان
وقتئها فيه ، وهو ما لا يمكن أن يكون له من معنى إلا أنه ﷺ لم يكن
ممنوعاً من دخوله ؟ قال تعالى : ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من
المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله ﴾^(٢) . أم نراه
سيكذب القرآن ؟ ولا إخاله يفعل ، فهو (فيما أعرف عنه) رجل
مسلم محبٌ لدينه^(٣) ، وإن كنت أرى أنه أسرف على نفسه وعلى
التاريخ وعلى ابن إسحاق . لم إن له تأيلاً للآية بخرجها عن معناها
الواضح المفهوم ؟

وبمضى د. مراد فيقول ، عما ورد في سيرة ابن إسحاق عن عزم أبي
بكر ، بعد اشتداد الأذى عليه ، على اللحاق بإخوانه المهاجرين إلى
الحبشة ، إن هذا الكلام غير صحيح اخترعه ابن إسحاق للبرهنة على أن
أبا بكر كان فراراً لا يفكر إلا في بهد وعلى استمداد لأن يترك الرسول
وحده في الميدان مُتَّهَداً لأذى الكفار وإساءاتهم ، وإن عرض ابن
إسحاق من هذا هو النبل من أبي بكر لحساب العباسيين لأنه أخذ
الخلافة من علي . ويدخل في هذا إسناد البكاء إليه عندما تحرش الكفار

(١) وهو من وقائع السيرة في المرحلة المكية كما هو معلوم للكافة .

(٢) الإسراء / ١ .

(٣) علاوة على أن أحداً من غير المسلمين لم يشك في صحة النص القرآني .

بالرسول في الكعبة وحاولوا خنقه ، إذ البكاء (كما يرى) هو علامة على الضعف وعدم التحامك ^(١) . ومن الطريف أن الأستاذ الدكتور يقرّ عقب ذلك بأن ابن إسحاق لم يخش لها بكر قدره بل ذكر كل ما كان يتحلى به من فضائل ومزايا ، وهو ما تناولناه في موضع آخر من هذه الدراسة تناولاً مفصلاً . وقد كان يكفي هذا من ابن إسحاق ، لو أردنا الإنصاف ، كي نعرف أن مثل ذلك العالم لا يمكن أن يكون هدفه الإنشاء إلى الصديق رضي الله عنه وأنه إذا كان قد حكى عنه عزمه على الهجرة وبكائه شفقةً على الرسول صلى الله عليه وسلم فلأن ذلك هو ما يلزمه فعلاً فأداه كما هو ولم يخترعه اختراعاً كما ادّعى عليه الأستاذ المؤلف .

ثم ماذا في أن يفتكر أبو بكر في الهجرة ؟ لقد بذل ، رضي الله عنه ، كل ما يستطيع في سبيل الله لم يألُ في ذلك جهداً ، لكنه رأى أن الأمور ، رغم كل شيء ، تسوء أكثر وأكثر ، وأن المشركين يستولون عليه وعلى أمته من المسلمين كل الأبواب والنوافذ ، وأن من الأفضل له من ثم أن يبحث عن مكان يأمن فيه على نفسه ويستطيع أن يجهر بدينه وأن يعبد الله على النحو الذي يحب . وعلى كل حال فإن الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه ، هو الذي أذن له ^(٢) . فماذا في هذا ، وقد كان بعض المسلمين آنذاك من شدة ما يلقون من برحاء العناب على أيدي

(1) La Biographie du Prophète, p 156 .

(2) سورة فمن عتلم / ٢ / ١٦ .

الوثنيين ، يعلمون الكفر بلسانهم (مع البقاء على الإيمان في أعماق قلوبهم) فلم يكر عليهم الرسول بل نزل القرآن الكريم يطمئئنها وينفي عنهم الكفر ؟ ^(١) إن صبيح أبي بكر لا يعدّ شيئا البتة بالقياس إلى ذلك . ولماذا ينسى الأستاذ المؤلف أن جعفرًا قد هاجر من قبل إلى الحبشة وترك الرسول بمكة ، وجعفر ليس مجرد مسلم عادي بل ابن عم الرسول عليه الصلاة والسلام ؟ وحمرة ، الذي يقارن د. مراد بين موقفه حين اشتبك مع أبي جهل وضربه على رأسه بالقوس وبين بكاء أبي بكر حينما رأى الكفار يعتدون على الرسول ويحاولون حرقه ، ألم يهاجر إلى المدينة تاركًا الرسول بمكة ؟ أما بكاء أبي بكر فليس فيه شيء يعاب على الصديق ، رضى الله عنه وأرضاه ، بل هو مفخرة له ، إذ يدل على مدى حبه للرسول عليه السلام وخوفه على حياته وتألمه للفظاضة والقسوة التي عامله الكفار بها وحاول هو رضى الله عنه أن يكفهم عنها فلم يستطع لكثرتهم ولما يبتوه من إصرار مشوحش على التكيل بالرسول تنكيلا يكون علة لغيره فلا يفكر أحد في اتباع دينه بعدما هاجر معظم المسلمين إلى بلاد النجاشي البعيدة . ولقد ذكر ابن إسحاق نفسه أن الرسول بكى ذات مرة أمام أبي طالب عندما ظن أن من الممكن أن يتأثر هذا العمّ بشكاوى قريش المتكررة وينصرف عن نصرته . ومثل هذه الدموع الطاهرة ليست من الضعف في كثير أو قليل ، بل هي دليل

(١) المرجع السابق / ١ / ٢٧٩ ، والآيتان ١٠٥ و ١٠٦ من سورة النحل .

الرحمة ووفرة الإنسانية . على أن المقارنة مع حمزة لا تصح إلا إذا كانت الظروف والسياق هما هما . ولقد رأينا حمزة يهاجر قبل الرسول على حين يبقى أبو بكر إلى جانبه لأنه صلى الله عليه وسلم طلب منه ذلك ، فما العمل ؟ كما كان الرسول في بدر يستعيث به في العرش فيما القتال مستحراً بين المسلمين (وعلى رأسهم حمزة وعلى) وبين الكفار ، فهل يصح أن يقال إن علياً وحمزة كانا أشجع منه صلى الله عليه وسلم ؟ ثم هل يمكن العيب عليه لأنه اختبأ مع أبي بكر في الغار ولم يبرز لمطارديه من مشركي قريش وبشنيك معهم في حرب ، فإما خرج منها غالباً وإما مات معذوراً ؟ لا يا دكتور مراد ، لا يصلح أن تتناول الأمور بهذه الطريقة !

ومن الصديق إلى الفاروق حيث نجد تشكيكات الدكتور مراد لا تزال ماصية تكتسح في طريقها كل شيء ! إنه يشكك في كثرة التفاصيل الخاصة بقصة إسلام عمر رضي الله عنه ، مع أن تشكيكه في صحة قصص أخرى قائم على أنها تخلو من التفاصيل ، وهو ما يبرهن على أنه دخل موضوعه وهو عاقد العزم على بذر بذور الرية والتكذيب . ومن بين ما يشكك فيه أيضاً أن تكون بضع آيات من القرآن قادرة (كما جاء في القصة) على تحويل عمر إلى الإسلام ^(١) ، مع أن لهذا نظائر كثيرة في حياة كل منا ، وهو ما لا يمكن الجادلة فيه ، وبخاصة إذا

(1) La Biographie du Prophète, pp. 162 - 163 .

كانت هناك مقدمات وبشائر تدل على قرب مثل ذلك التعمير الذى حدث فى حياة عمر الروحية ، فقد ذكرت إحدى نساء قرهش ممن هاجروا إلى الحبشة أن عمر قابلهم فى الطريق ، وكان يؤذيهم قبل ذلك لفتنتهم عن الإسلام ، فسألها عن وجهتها فأخبرته أنهم منطلقون إلى الحبشة بسبب ما يلقونه على يديه هو وأمثاله من القهر والإيذاء ، فوجدت منه رقة على غير العادة وشامت فى ملامحه وصوته حزنا . فلما جاء زوجها ، وكان قد ذهب فى حاجة لهم ، أخبرته بما حدث وذكرت ما أحسته فى كلام عمر من رقة ولين ، فقال لها مستكبرا : « أَطَمَعْتَ فى إسلامه ؟ » ، فأجابته أن : « نعم » ، لكنه استبعد ذلك أشد الاستبعاد قولا فى يأس إن مثل عمر لن يسلم إلا إذا أمكن أن يسلم حمار أبيه الخطاب أولا . ولا شك أن إحساس المرأة الفطرى عند تلك السيدة قد ألهمها الصواب الذى فات زوجها . وعلى هذا فليس بمستغرب أن ينقلب عمر من النقيض إلى النقيض بعد أن رأى الدم يسيل من وجه أخته من جرأه ضربه لها ، وبعد أن قرأ افتتاحية سورة « طه » أو ، على الرواية الأخرى ، بعد أن سمع للنبي وهو واقف أمام الكعبة فى ظلام الليل وهنالك ينظر بصوته الرقيق النحيل آيات القرآن الكريم ، وكان قد جاء لخيرته فيما يظن فكانت النتيجة أن داخله الحياء والمطف والإسلام^(١) . إنها المقدمات تسلم إلى نتائجها ! لكن الأستاذ الدكتور يتناسى هذا كله

وبعض عينيه كيلا يراه مع قربه الشديد منه حتى إنه لو مدَّ يده للمسح
لما . لكن ماذا أقول ؟ لقد كانت الوثنية في قلب عمر في نزعتها
الأحيرة ترسل أنفاس الموت ، لكن : حلاوة الروح ، كانت تدفعها إلى
المغالبة !

أما اعتقاد المؤلف ، أو بالأحرى لدعاؤه ، بأن الإنسان إما أن يُسلم
لأول سماعه للقرآن وإما ألا يسلم أبدا مهما تكرر سماعه له بعد
ذلك^(١) ، وما علم عمر قد سبق له أن سمع القرآن مرارا ولم يسلم فليس
من المعقول أن يكون إسلامه هذه المرة مجرد سماعه آيات منه ، فجوابنا
على ذلك هو أن المسألة ليست بالبساطة التي يتجملها الأستاذ الدكتور ،
فكم من آية قرآنية يمرّ بها الإنسان كثيرا مرور الكرام دون أن تلفت نظره
فيها شيء ، ثم إذا هي نفسها في ظروف أخرى تفعل في نفسه
الأفاعيل ، وقد تزلزل كيانه ! وما أكثر الكلمات التي يقال لنا فتضحك
لها ملء أنفاسنا ، ولكنها في سياق آخر تثير غضبا ونفسا ما بيننا وبين
نائلها ! وقى على ذلك كثيرا من أمور الحياة . ونعمة سؤال أحب أن
يجيب عليه الأستاذ الكريم ، وهو : إذا لم يكن عمر قد أسلم عند
سماعه آيات القرآن الكريم ، ففي أي ظروف أخرى حدث إسلامه
يا ترى ؟ وهل هناك ما هو أفضل من القرآن بالنفس وأقدر على إثارة
المشاعر النبيلة للطعمورة في أعماق الإنسان في مثل تلك الظروف ؟

والدكتور المؤلف يرفض ما تقوله السيرة من أن عمر ، قبل إسلامه ،

(1) La Biographie du Prophète, p 163

كان يمثّل للمسلمين ، ويرى أنّ من بين الدوافع إلى اتهامه الرغبة في الإساءة إليه لتوليه الخلافة على حساب بنى هاشم وفتح بلاد فارس ، التي ينتمى إليها أسلاف ابن إسحاق^(١) . لكن معنى هذا الكلام هو ، بكل بساطة ، أن ابن إسحاق يكره الإسلام أو ، على أقل تقدير ، في إسلامه زغل ، وهي تهمة شديدة الخطورة وتتسم بالافتراء والتهوّر . فهل في حياة ابن إسحاق أو شخصيته ما يساعد على رميه بهذه التهمة أو تصديقها من يرميه بها ؟ إن الرجل كان خادماً للمنة النبوية هو وأخواه وأبوه من قبل ، وصفحة حياته مفتوحة لكل من ينظر ويقرأ ، وليس فيها بحمد الله ما يمكن أن يؤخذ عليه من هذه الساحية . وزيادة على هذا فإنه قد وثق عمراً حقه فذكر ما قاله النبي حين دعا الله أن يؤيد الإسلام بأحد المؤمنين عمرو بن هشام^(٢) أو عمر بن الخطاب ، فكانت الدهرة من نصيب عمر وأكرمه الله بالإسلام وقوله به^(٣) كما أبرر ابن إسحاق كيف كان إسلام عمر فتحاً ، إذ استطاع كثير من المسلمين أن يعلنوا إسلامهم وأن يجاهروا بشعائهم ، وذلك غير موافقة للوحي له في بعض الأمور ... إلخ مما فصلنا فيه القول في موضع آخر من هذا البحث . بل إنه في مسألة ترشيحه أياً بكر لخلافة الرسول لم تدبر من ابن إسحاق أية كلمة يمكن أن توحي بكرهه لذلك . ولهذا

(١) المرجع السابق / ١٦٤ .

(٢) هو أبو جهل .

(٣) سيرة ابن هشام / ١ / ٢٩٦ - ٢٩٩ .

قلت قلا إن شيعية ابن إسحاق المدعاة عليه لا وجود لها في كتابه الذي بين أيدينا .

ثم ماذا في أن عمر كان يعذب المسلمين قبل أن يدخل الإسلام ويصبح واحدا منهم ؟ إن كثيرا من الصحابة كانوا مثله في تعذيب من سبقوهم إلى الإيمان برسالة محمد . والإسلام ، على كل حال ، يَجِبُ ما قبله . والمؤلف يؤكد دائما أن التعذيب كان شاملاً وعنيفاً ، وأن بنى هاشم رننى للطلب قد اشتركوا فيه وكانوا شديدي القسوة في ذلك ، فما الذى جعله يغضب لعمر هكذا ؟ أهو حُبُّ المخالفة لكل ما يقوله ابن إسحاق والسلام ، فإذا قال : « الشرق » قال هو : « العرب » ، وإذا قال : « الغرب » قال هو : « الشرق » ؟ أم ماذا ؟ ومثل ذلك يقال عن إشارة الرواية الثانية الخاصة بإسلام عمر إلى أنه كان يشرب الخمر في الجاهلية ، فالأستاذ الدكتور يرى أن ابن إسحاق إنما أراد بهذا أيضاً الإساءة إلى الفاروق . وماذا بالله في أن الفاروق كان يشرب الخمر في الجاهلية ؟ إن الخمر لم تحرم إلا بعد مجيء الإسلام بزمان طويل ، وكان حمرة (الهاشمى) يشربها في الإسلام هو والأعلبية الساحقة من الصحابة . وليس في هذا أدنى شذوذ عن تقاليد البيئة التى نشأوا فيها ، فقد كان العرب يفتخرون بشربها ، وشعر حسان مثلاً قبل الإسلام مملوء بهذا . وهذه هى الجاهلية ، وإلا فما الفرق بينها وبين الإسلام ؟ وهَبْ أن ابن إسحاق قد كذب على الفاروق والصدّيق وسائر الصحابة والرسول وأشاع الاضطراب فى وقائع التاريخ النبوى واخترع روايات من عنده

ونسبها إلى زيد وعبيد من الناس ، فهل كان يمارس الإرهاب على هؤلاء الناس بحيث لم يستطيعوا أن يفتحوا أفواههم ويكثبوه فيما رواه عنهم زورا وبهتانا ؟ ألا يرى الأستاذ الدكتور النتائج العجيبة التي تؤدي إليها نظريته ؟ إنه ليكنفي أن نقرأ عند ابن إسحاق أن عمر (غير الهاشمي) قد أسلم ، بينما لم يسلم أبو طالب وأبو لهب (الهاشميان) ، وأنه أيضا أسلم قبل أن يسلم العباس عم الرسول (١) وأبو سفيان بن الحارث ابن عم الرسول (الهاشميان أيضا) كي نترك أن ابن إسحاق لا يعرف ذلك الهوى الذي يدعي الأستاذ المولف أنه هو الذي كان يحركه في كتابة السيرة . لكن هذا للأسف لا يصح نهاية للمسألة ، فالأستاذ الدكتور يقول إن ابن إسحاق ، يذكره فضائل عمر ، إنما يهدف إلى أن يبدو موضوعها (٢) . ومعنى هذا أنه لا ضائقة من كل ما قلناه في الرد عليه ، ولكن ما هكذا نورد يا سيد الإبل !

ولعل الأستاذ الدكتور إشارة ابن إسحاق إلى أن الوليد المخبرة قد نزل فيه قرآن مشنح عليه ويهدده (لمخالفته للرسول وصده عن سبيل الله) بأنه والد خالد بن الوليد . يريد أن يقول إن ابن إسحاق إنما قصد بذلك إلى الانتقام من خالد ، الذي سبى جده يسار على يديه (٣) . ولعل أبلغ رد على هذا هو التنبيه إلى أن كل كتب السيرة وأسباب النزول ، التفسير

(١) بل لقد ذكر أنه ، رضي الله عنه ، قد فخر قى إسلامه ، لو على الأقل في إعلان إسلامه ، عرقا على مجزئه وماله كما مر ذكره .

(2) La Biographie du Prophète, p. 166 .

(3) المرجع السابق / ٢٧٠ - ٢٧١ .

التي يعرفها تقول هي أيضاً هذا الذي يقوله ابن إسحاق . ولا ننس أن الوليد هذا مات كافراً ، بل وتأخر إسلام ابنه خالد إلى ما بعد الهجرة بزمان غير قصير . أفكان خالد قد سى جدود كتاب السيرة وعلماء القرآن ومفسريه جميعاً ففتحوا عليه لهذا وأطبقوا على هذا البهتان انتقاماً منه ؟ ثم هل الوليد هو وحده الذي نزل فيه قرآن يتوعده ويتهلده بعذاب النار لإصراره على الشرك ومحادثته لله ورسوله وركبده للإسلام والمسلمين ؟ إن الدين نزل فيهم قرآن لشركهم أو نفاقهم كثيرون ، ولم يَنْبِ أحد منهم ولا من أبنائهم جدّ ابن إسحاق ولا أحداً من أقاربه . وعلاوة على ذلك فقد أبرز ابن إسحاق في « سيرته » مناقب خالد : كدوره العظيم في إنقاذ الجيش الإسلامي في مؤنة بعد استشهاد قواده الثلاثة والرجوع به موفور الكرامة دون مزيد من الخسائر^(١) ، ومشاركته في قيادة جيش الإسلام في فتح مكة^(٢) ، وتكليف الرسول إياه بهدم العزى^(٣) ، وتشريفه له بحمل رساله إلى ملك حومة أكيدر بن عبد الملك يدعو به إلى الإسلام^(٤) ، وإسلام بني الحارث بن كعب على يديه لما سار إليهم بأمر الرسول عليه السلام في سنة عشر من الهجرة^(٥) ، وغير ذلك

ويتمت تشكيك المؤلف الساجق للمحقق (الذي لا يكاد يفادر صغيرة

(١) سيرة ابن هشام ١٤ / ١٤ .

(٢) المرجع السابق ٢٧ / ٤ .

(٣) السابق ٦٠ / ٤ .

(٤) السابق ١٢٥ / ٤ .

(٥) السابق ١٧٧ / ٤ - ١٧٨ .

ولا كبيرة في وقائع السيرة النبوية إلا اعترض عليها وكذبها) إلى رحلة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الطائف فيقول : كيف أقدم عليها ﷺ وحده رغم أنه كان معرضاً للأذى والخطر من جانب قريش على مدى تلك المسافة الطويلة بين مكة والطائف ؟ وكيف يؤمن به عدائس ضلام عتية وشيبة انتهى ربيعة بمجرد أنه عليه السلام كان يعرف النبي يونس ؟ (١)

وقبل أن أدخل في تفاصيل الرد على كلام الأستاذ الدكتور لا بد من لفت النظر إلى أن منهجه التشكيكي الذي يهدف إلى زعزعة الثقة في كل شيء على هذا النحو ليس من المنهج العلمي في شيء ، والأفـضا أسهل أن ينطلق أي إنسان في حقد قومن لرتبائه في جميع الأشياء والأشخاص ! إن باب الشك إذا فتح بهذه الطريقة فلن يمكن إعلاقه أبدا ما دام لا يوجد ضابط يحكم عملية فتحه وغلقه . والمهم هو أن تكون هناك أسباب للشك وجيهة . وقد وضّحنا من قبل تهافت الأسس التي بنى عليها المؤلف اتهامه لابن إسحاق ، كما أظهرنا للقارئ أن الشكوك التي أثار رباحها حول المسائل السابقة هي شكوك في غير محلها تماما ولا تثبت على محك التمهيص التاريخي والمنطقي . أما بالنسبة للشك في رحلة الطائف فإننا نتساءل : لم يا ترى اخترعها ابن إسحاق ؟ إنه ليس هناك في الواقع من سبب لهذا إلا إذا قلنا إن الرجل كان يتعسف

(1) La Biographie du Prophète, p. 291 .

الكذب تنفسا وكان التزييف يجرى فى دمه فلا يستطيع أبدا أن يقول كلمة صدق ، فهل كان ابن إسحاق هكذا ؟ لقد انضح مما سقناه فى ترجمته أنه كان رجلاً فاضلاً وعالماً ثقة ، ومن ثم فلا يصح ، لا من الوجهة العلمية ولا من الوجهة الحلقية ، أن نتهمه بذلك . ولنفترض أنه كان كذاباً مزيفاً كما يريتنا الأستاذ المؤلف أن نفتتح ، فهل كان المسلمون المعاصرون له ، وبخاصة الذين أسند إليهم هذه الأكاذيب ، وكذلك من أتوا بعده من العلماء هم أيضاً كذابين إلى أن ظهر الدكتور مراد فكان هو الوحيد الذى تنبه إلى هذه الأكاذيب الكبرى ، أكذوبة السيرة التى كتبها ابن إسحاق ، أو على الأقل كان هو الوحيد الذى لديه الشجاعة للصدع بكلمة الحق بشأنها ؟

أما عن سؤال الأستاذ المؤلف كيف أقسم النبى على رحلة الطائف وحده رغم أنه كان معرضاً للأذى والخطر من جانب الكفار على مدى تلك المسافة الطويلة بين مكة والطائف ، فرغم أن ابن إسحاق^(١) لم يذكر لنا تفاصيل الطريق فإن ذلك لا يصلح أبداً أن يكون مرتكزاً للشك فى الرحلة كلها ، فإن جهلنا بكيفية حدوث شيء ما لا يعنى أن ذلك للشيء لم يقع ، إذ هاتان مسألتان مختلفتان تماماً . ومع ذلك فمن الممكن أن يكون الرسول عليه السلام قد خرج من مكة فى وضوح النهار ونعرض للمسخر والتهكم أو ربما وقع عليه بعض الأذى البدنى كما كان

(١) ومثله فى ذلك سائر كتب السيرة فيما تعلم .

يحدث له في كثير من الأحيان في داخل مكة نفسها ، وقد تكون قریش تركته يخرج ظناً منها أنها فرصة للتخلص منه . والدكتور نفسه قد قال شيئاً كهذا عندما اعترض على ما قاله ابن إسحاق بشأن ما عرضه أحد العرب من بني عامر^(١) على النبي من الذهاب معه إلى بلاده والدخول في حمايته ورغبة ذلك الرجل في التثبيت من المكاسب التي تعود عليه وعلى قومه من جراء هذه الحماية التي ستجلب عليهم عداوة قریش ، إذ تسأل د. مراد قاتلاً : أية عدوة سيجريها خروج الرسول معه إلى بلاده مع أن هجرته إليهم من شأنها أن تضع حداً للخلاف بينه وبين أهل مكة؟^(٢) ألا يرى القارئ كيف أن الدكتور قد وضع مخالفة ابن إسحاق ونخطته في كل ما يقول مبدأ له لا يحيد عنه ؟ إن خروج النبي إلى الطائف حيث لم يجره أحد من أهلها لويده إلى هناك لهرأهون على قومه وأقل إثارة لهواجسهم ومخاوفهم من الذهاب مع ذلك العامري ، فمثل ذلك الخروج يمثل في نظرهم غاية الضعف والانكسار ، وهو قمين بأن يثير شماتتهم ونشوتهم ، أما ذهابه إلى قوم آخرين عاهدوه على الحماية والصرة ورجون من رفاقه القيادة والجد والسلطان فقصة أخرى . ومع هذا فالأستاذ الدكتور يقبل تلك القصة الأخرى ويرد قصة الرحلة إلى الطائف !

هذا عن السؤال الأول ، أما فيما يخص عدناً فليس في الأمر أية

(١) هو يجره من فراس . وتظهر قصة مع الرسول عند ابن هشام ٥١ / ٢ - ٥٢ .
(2) La Biographie du Prophète, p. 296 .

مشكلة ، قالاس متفاوتون في استجابتهم لما يُعرض عليهم من دعوات جديدة : منهم الذى يسارع إلى الدخول فيها ، ومنهم الذى يتأنى ، ومنهم الذى يتردد ، ومنهم الذى يحاربها فى البداية ثم ينتهى أمره إلى التسليم بها والدفاع عنها بنفس الحرارة التى كان يحاربها بها أولاً ، ومنهم الذى يدخل فيها بعد عباد ولكنه لا يتهمس هذا التحمس ، ومنهم الذى يضل طول عمره معذباً لها ثم يموت وهو لا يزال يحاربها ويصد عنها وهكذا والذين أسلموا فى بداية الدعوة المبكرة هم من الصف الأول ، فما وجه المشكلة فى أن يكون عدّاس منهم ؟ أم قد حلا الناس جميعاً من العقل والرحمة فلا يمكن أن يؤمن من يؤمن منهم ، كائناً ما كانت موافقة الظروف لهذا الإيمان ، إلا بعد اللّتيّ والثى ؟ على أن الأمر فى قصة عدّاس لا يحصر فى أن الرسول كان يعرف السبي يوس بن متى ، الذى كان من أهل بنوى بلد عدّاس نفسه ، بل لمت انتباه عدّاس أيضاً أن الرسول عليه السلام لم يبدأ الأكل من فطع العيب الذى حمّله إليه ذلك الحادم بأمر من سيّده إلا بعد ذكر اسم الله تعالى عليه ، وهو ما عجب له عدّاس أشد العجب ، وحق له ، لأنه يحالف عقائد الوثنيين ونفاليدهم فى أكلهم . ولقد كانت الظروف التى جمعتها بالسبي عليه السلام كقيلة بأن ترقق قلبه وتمتّع عقله وصميره ، فقد لجأ الرسول إلى بستان سيّده يحمى به من الحجارة والشتائم التى كانت تهال عليه من سفهاء الطائف وعبيده وصبيانهم دون أى ذنب جاءه . وبالماسبة فمن الممكن جداً أن تكون قريش ، حين رأّت الرسول يخرج من مكة ، قد علمت على هذا النحو أو

ذاك بأنه متوجه إلى العائف فسبقته وأرسلت إلى بعض من تعرفهم من الحمقى قساة القلوب هناك أن يستقبلوه هذا الاستقبال اللاإنساني . وها هو ذا عداس في حضرة ذلك الرجل الذي لا بد أن نبه له لم يخف عليه والذي تطارده هذه الوحوش البشرية دون أية إساءة اقترفتها في حقهم ، هذا الرجل الذي كان غريباً مثله ، وكان أيضاً مثله في عدم إيمانه بالأصنام ، وكان كذلك مثله ضعيفاً لا حول له ولا طول . ثم ها هو ذا يذكر اسم الله أمامه على الطعام ويذكر اسم السي يونس بن متى ، الذي تربطه بعدادس وشيجة الانتماء إلى نفس الوطن : الوطن النبيد الذي لا بد أن نطق الرسول باسمه قد أثار كوامن الذكريات والأشجان في قلبه . وربما سمعه حين التجأ إلى البستان وهو يناجي ربه تلك المناجاة التي فتت قلب الحجر رحمة وحناناً قائلاً : اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين . أنت رب المستضعفين وأنت ربي . إلى من نكلتني ؟ إلى بعيد يتجهمني ؟ أم إلى عدو ملكته أمري ؟ إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي ، ولكن عافيتك هي أوسع لي أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي عصبك أو يحل علي سخطك . لك العتي حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك . أفيمكن غريباً بعد هذا كله أن بهش عداس لذلك الإنسان ويبدى ابتهاجه بتلك المصادفة السعيدة ؟^(١) والله يا دكتور إن ما نقوله لحرام ! والحمد لله

(١) انظر قصة ذهابه عليه السلام إلى الطائف من لولها إلى آخرها في سيرة ابن هشام/

أن سيادته لم يقل إن ابن إسحاق كانت تصله بعدد هذا صلة قرابة أو كانت له عند دريته بعض المصالح نسب إليه ذلك الفصل !

فإذا بلغنا الاتصالات التي تمت بين النبي عليه الصلاة والسلام وأهل يثرب والتي انتهت بهجرته صلى الله عليه وسلم إلى بلادهم وإقامة دولة للإسلام هناك نجد المؤلف كديده لا يكف عن التشكيك في كل حدث من أحداثها . فهو أولا يرمى ابن إسحاق بالتحيز لأهل المدينة ضد قريش والميالة في أعداد الذين دخلوا الإسلام من أولئك مع قوله عن المسلمين من هؤلاء إنهم كانوا « قليلا مستضعفين » . وهو ثانيا يعمد فيقول : كيف نوفق بين ذكر ابن هشام ، أثناء روايته لحادثة الإسراء والميراج ، أن الإسلام فشا في مكة وفي القبائل كلها ^(١) وقوله بعد ذلك إن من آمن به كانوا أقلية ضعيفة ^(٢) وهو ثالثا يمدى دهنه من انتشار الإسلام بهذه السهولة المتناهية وتلك السرعة الشديدة وفي ذلك الرمز القصير بين أهل المدينة في الوقت الذي لم يبق طريقه في مكة طوال ثلاث عشرة سنة إلا بمحتهى البطء وفي أضيق نطاق . وهو رابعا يتساءل عن السر في أن اليهود لم يحاولوا ثنى اليمانيين عن الدخول في الإسلام مثلما قالوا لقريش : إن ديككم أفضل من دين محمد ^(٣) .

(١) انظر ابن هشام / ٢ / ٣٢ .

(٢) المرجع السابق / ٢ / ٤٦ .

(3) La Biographie du Prophète, pp. 289 , 302 303

ومقطع القول أنه ليس من حق أحد أن يشكك في وصف ابن إسحاق لمسلمي مكة بأنهم كانوا « قليلا مستضعفين » لسبب جَدِّ بسيط هو أن هذا قد ورد في القرآن الكريم ، إذ يقول الله تعالى للمرسول وأصحابه عقب الهجرة ممتنا عليهم بأنه هبأ لهم الانتقال إلى المدينة وفتح قلوب أهلها لهم : « واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تحافون أن يتحطفكم الناس فأراكم وأيدكم بتصرة ورفقكم من الطيبات لعلكم تشكرون » (١) . أم ترى الأستاذ الدكتور يشك في هذه الآية أيضا ؟ (٢) لا ، لا أظنه يفعل ، فهو مسلم ، لكنه الإسراف في سوء الظن بابن إسحاق وسيرته والرغبة في تلويث ذمته وهذا الذي يقوله ابن إسحاق هو ، بالمناسبة ، ما نقوله كل كتب السيرة قبل ابن إسحاق وبعده ، وليس من المهجية العلمية أن نقول بأنهم موالون لأهل المدينة ، وهي التهمة التي يتهم المؤلف بها ابن إسحاق رغم أننا قد رأينا أنه مولى لقبيلة قرشية وأنه قد غادر المدينة منذ وقت مبكر ، فضلا عن أن عروة وابن شهاب الزهري القرشيين (وهما مجرد مثاليين ليس إلا) يقولان الكلام ذاته عن ظاهرة بطء انتشار الإسلام وصعوبته في مكة وسرعته وسهولته في يثرب . وإلا فبالله عليك أيها القارئ! كيف نفسر هجرة

(١) الأنعام / ٢٦ .

(٢) المؤلف يؤكد أن عدد المسلمين في مكة لم يكن قليلا على عكس ما يقول ابن إسحاق ، والدليل على ذلك هو فظاعة الاضطهاد الذي لُزله القرشيون بالمسلمين بسبب خوفهم منهم على دينهم ومؤلفهم (ص ٢١٨ - ٢١٩)

السي ومسلمي مكة إلى المدينة ونساء القرآن على أهلها الذين رحبوا به وقوله عنهم إنهم « آروا ونصروا » وتسميته إياهم بـ « الأنصار » (بالألف واللام الدالتين على الماهية والاستغراق معا) وعدم تسجيل التاريخ في أى كتاب من كتبه أنهم وقفوا من دين محمد وقفة قريب منه أو عذّبوه أو عذبوا أحدا من أتباعه ؟ وبم نفسّر قيام دولة هناك منذ اليوم الأول لوصوله صلى الله عليه وسلم ؟ ما كنت أظن أن من الممكن الذهاب مع التشكيك إلى هذه الآماد الشاسعة في أمر لا يقبل نقضا ولا إيمانا لأنه فوق كل شك وفوق كل تكذيب

أما قول بن إسحاق قبل ذلك إن الإسلام قد فشا بمكة وفي القبائل كلها فمن السهل فهمه على أنه فشوّ نسبي لا على إطلاقه ، أى أن شيئا من السرعة قد اعترى خطوة الإسلام التي كانت في بداية الأمر بطيئة كخطوة السلحفاة ، ولم يمدّ أتباع الدين الجديد يستحفون به كما كانوا يفعلون قبلا . كذلك ينبغي ألا يغيب عن بالنا أنه قال أيضا عقب الإسراء والمعراج إن كثيرا من المسلمين قد ارتدّوا عن دينهم لعدم مقدرتهم على تصوّر دهاب الرسول إلى بيت المقدس وعودته إلى مكة في نفس الليلة ^(١) ، أى أن عددهم قد تناقص وأصبحوا هذبا لمريد من السحرية القارصة والاضطهاد الشديد . ثم إنهم في الحالين كانوا أضعف وأقلّ من أن يستطيعوا الوقوف في وجه هذا السيل العائى من الكراهية

(١) انظر ابن هشام ٢ / ٢٣ - ٢٤ .

والعداء . وحتى لو افترضنا بعد ذلك كله أن التعبير قد خان قلم ابن إسحاق في هذه النقطة فإن هذا لا يطمئن في صدقه ، إذ من كتاب إلا وهو معرض لمثل هذا في بعض الأحيان . ولو قارنا ابن إسحاق في هذا المجال بالدكتور مراد مثلاً فسوف يكسب ابن إسحاق بالضرورة القاضية !

إن علينا ألا ننسى أن مكة كانت معقل الوثنية ، وفيها الكعبة التي كان يحج إليها العرب جميعاً من مشارق الجزيرة ومغاربها والتي ارتبطت مصالح أهلها بها ، ومن شأن هذا كله أن يدفعهم إلى التشبث بدينهم والعناد في الذب عنه ومعاداة من يأتيهم بدين يقضه ويهدمه . ولأمر ما قيل : « لا كرامة لنبي في وطنه » . وفوق هذا وذاك فإن ابن إسحاق قد عزا سرعة استجابة البشريين للإسلام إلى أسباب خارجة عنهم ، إذ قال إن مساكنة اليهود لهم في بلادهم قد هيأت لهم الفرصة لسمعوا منهم عن النبي الذي أطل زمانه والذي كان اليهود أنفسهم ينتظرونه بل ويهددونهم بأنهم سيبغضونه ويحاربونهم تحت رايته ^(١) ، وهو ما يدل على ابن إسحاق لم يكن يهدف إلى تمجيد الأنصار بل إلى كتابة وقائع التاريخ كما وصلت إليه . وهذا ثابت في القرآن فلا سبيل إلى المماحكة فيه ، وإن كان اليهود (كما قال القرآن أيضاً) قد انقلبوا عند هجرة الرسول إلى بلادهم وعرضه الإسلام عليهم فكانوا أول كافر به . قال عز شأنه : ﴿ ولما جاءهم (أي اليهود) كتاب من عند الله مصدق لما معهم ،

(١) المرجع السابق / ٢ / ٥٤ - ٥٥ .

وكانوا من قَبْلُ يستفتحون (أى يستصرون به) على الدين كفروا ،
فلما جاءهم ما عرفوا (أى ما كانوا يعرفونه من ظهور نبي فى ذلك
الوقت) كفروا به . فلعنة الله على الكافرين ! ^(١) . وقد مضى القرآن
الكريم فى الآية التالية لهذه فبيّن السبب فى هذا الكفر المفاجئ ، إذ
أرجعه إلى بغيتهم وحقدهم على العرب ، الذين جعل الله هذا السبي
مهم ولم يجعله من بنى إسرائيل وهذا يفسّر لنا بدوره خبث اليهود
وتلوّن مواقفهم حسب السياق فهم فى المدينة يهددون جييرانهم العرب
بالسبي الذى ينتظروه ، وهم مع أهل مكة يشايعونهم على كفرهم
ويؤكدون لهم أن وثنيّتهم خير من دين محمد ، الذى جاءهم بالتوحيد ،
رغم ما يصدّعون به دماغ العالم كله من أنهم هم القوامون على ذلك
التوحيد ولا تسألنى لماذا كان اليهود متلوّنين هكذا ، فهذه طبيعة
شخصيتهم بعامة . لا وفاء لهم ، ولا قداسة عندهم لشيء . ومن قَبْلُ
عبدوا العجل بمجرد أن غاب موسى عن أعينهم . وكثيرا ما تسافهوا ،
فى حربهم الكلامية ضد الرسول ، على الله نفسه الذى يدّعون أنهم
أبساؤه وأحباؤه ، إذ قالوا : ﴿ إن الله فقير وحنّ أعنياء ﴾ ^(٢) و ﴿ يد
الله معلولة ﴾ ^(٣) . كما سجّل العهد القديم والعهد الجديد معاً عليهم
كفرهم المتكرر وخياناتهم التى لا تنقطع . فلا معنى إذن لاستغراب

(١) البقرة / ٨٩ .

(٢) آل عمران / ١٨١ .

(٣) المائدة / ٦٤ .

المؤلف تناقض موقفهم وقوله إنهم ما داموا كانوا يؤمنون بأن نبيا سيبعث في تلك الأيام لقد كان ينبغي أن يكونوا أول المؤمنين به^(١).

والمؤلف يتهم أيضا ابن إسحاق بأنه تلاعب بالقرآن وعبث به من أجل غرضه في الإعلاء من شأن اليرشيين ، إذ جعل الآية الثانية عشرة من سورة « الممتحنة » ، وهي من الوحي المدني المتأخر ، أساس أولى البيعتين السمائين بيمتى العقبة^(٢). وهنا هو نص الآية المذكورة : « يا أيها النبي ، إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على ألا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين بهتان يفتريه بين أيديهن وأرجلهن ولا يتصينك في معروف فبايعهن واستمعن لهن الله . إن الله غفور رحيم » .

ولكن كيف يمكن اتهام ابن إسحاق بهذه التهمة الخطيرة التي لا أعرف كيف واتى الأستاذ الدكتور قلبه على الإقدام عليها بضمير خفيف كهذا مع أن ابن إسحاق ليس هو الوحيد الذي قال ذلك ، بل ذكره كثير من العلماء ، ومنهم البخاري في « صحيحه »^(٣) ، وكذلك ابن حزم في « جوامع السيرة » ، وإن لم يورد الآية مكثفيا بتسمية البيعة بـ « بيعة النساء »^(٤) ، وهما مجرد مثالين من العلماء المتقدمين فقط ، ودعنا من المتأخرين ؟ قد يقال : ولماذا لم يذكر القرآن هذه البيعة والعهد

(1) La Biographie du Prophète, p. 308

(2) المرجع السابق / ٣٢٦ .

(3) صحيح البخاري / ٢ / ٣٢٩ .

(4) انظر « جوامع السيرة النبوية » / ١ / ٩٨ - ١٠٢ .

الذى أحذره رسول الله فيها على أهل يثرب ، على حين ذكر نصر هذا العهد في بيعة النساء بعد صلح الحديبية ؟ والجواب سهل لمن يتدبر الأمر ، فقد كان هذا العهد بوجه عام هو المطلوب من أى شخص يريد أن يدخل فى الإسلام فى الظروف العادية التى لم يكن فيها حرب ^(١) ، ولهذا بحمد بذكر بنصه فى البيعة التى أحدها صلى الله عليه وسلم على النساء عند فتح مكة ^(٢) ، ولكن لم يكن من الممكن أن ينزل وحى يشير إلى لقاء الرسول بالشريين فى العقبة ولا إلى ما دار بينه وبينهم لأن الأمر كان يتم سرا بعيدا عن حيون قريش ورقبائها ، ولو قد علمت به لأحبطته أو لا عتدت على الرسول ومعاهده وربما قتلته أيضا . أما بعد أن مضت الظروف التى كانت تتطلب السرية والحذر وقامت دولة الإسلام فى المدينة وثبتت أوثادها وأطنابها فقد نصر الوحى على شروط هذه البيعة فى سياق حديثه عن هجرة النساء المؤمنات من مكة إلى المدينة وما ينبغى أن يقله فى العهد الذى يعطيه للرسول عليه الصلاة والسلام . ومع هذا كله فيطلب على ظنى أن تسمية بيعة العقبة الأولى بـ « بيعة النساء » هو اصطلاح متأخر ، على الأقل عن بيعة الحرب فى العقبة الثانية ، التى أصبح ممكنا بعدها التمييز بين هذين اللونين من المعاهدات .

(١) انظر مثلا « تاريخ الطبرى » ٣ / ٦١ ، وصحيح البخارى ٤ / ٢٤٧ ، وصحيح مسلم / عيسى الباقى القلى ٢ / ١٤٢ .

(٢) انظر « تاريخ الطبرى » ٣ / ٦١ - ٦٢ ، وصحيح البخارى ٤ / ٢٤٧ على سبيل المثال .

ومى بيعة العقبة الثانية نسمع من العمة التشكيكية ، فالأستاذ الدكتور يكر إنكاراً باتاً أن يكون قوله تعالى ﴿ أَدْنُ لِلدِّينِ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا ، وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ ^(١) قد نزل في مكة ^(٢) لأن سورة الحج (كما يقول) سورة مدنية وهو يفتى من وراء هذا إنكار حدوث هذه البيعة من أصلها ، إذ يقول إن الإسلام كان معروفاً في المدينة قبل بيعتي العقبة عن طريق المكيين الذين يترددون على يشرب للتجارة أو لزيارة الأقارب ، أو عن طريق الشريين الذين يفتدون إلى مكة لهدية العرصين أو لعرض الحج ، أو عن طريق القبائل الأخرى التي تقدم إلى المدينة وعندها علم بالإسلام ، وإن بعض أهل المدينة دخلوا من ثم الإسلام ، الذي لقي مقاومة أعنف في يشرب سواء من جانب المشركين أو من جانب اليهود ، وإن التعذيب قد ظل يمارس لسنوات طويلة فيها ، ثم أخذ التجار المكيون المسلمون يتوافدون إليها ، ثم أرسل الرسول بعض مبعوثيه كمصعب بن عمير للمراقبة والإشراف ، ثم هاجر هو بعد ذلك عندما أصبح الوضع في مكة لا يطاق ^(٣) ولكن لماذا احتزع ابن إسحاق بيعة العقبة الثانية ؟ يجيب د مراد بأنه قد أراد أن يعادل بها بيعة الرضوان التي تمت بين المسلمين وبينهم إثر سريان الشائعات بمقتل عثمان على أيدي كفار مكة حين أرسله الرسول عليه

(١) الحج / ٢٩

(٢) قبل بيعة العقبة الثانية كما عند ابن إسحاق .

(3) La Biographie du Prophète, pp. 314 - 315, 319, 383 384

السلام إليهم ليفاوضهم في أمر دخول المسلمين مكة لتأدية العمرة ، تلك البيعة التي يقول إن آيا من الأسماء المدنية المذكورة في بيعة العقبة الثانية لم تظهر فيها والتي يرجح أن المهاجرين كانوا يمثلون أغليبتها نظرا للحماسة الشديدة التي لا يد (في نظره) أن يكونوا قد أبدوها بسبب شوقهم إلى رؤية مكة وطنهم ^(١) . وهو ، مع ذلك كله ، يعود فيقول إنه لا يستبعد أن يكون قد تم لقاء بين النبي عليه السلام وبعض المشركين في العقبة ، لكنه كان لقاءً عاديا عبر فيه مسلمو يثرب هؤلاء عن فرحتهم برؤية نبيهم وأحفاد يساكنه عن بعض أمور الدين وما إلى ذلك ، ولا شيء غير هذا ^(٢) . وأخيرا فإنه يرى أن هجرته صلى الله عليه وسلم إلى يثرب لم تكن لها أية صلة ببيعة الحرب المزعومة ، فالهجرة عنده لم تكن أمرا اختياريّا بل للشرككون هم الذين نفوا الرسول والمسلمين وأخرجوهم من وطنهم إخراجا ^(٣) كما يدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدَّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتِكَ أَهْلُكُنَاهُمْ فَلَا تَاصِرْ لَهُمْ آيَةٌ ﴾ ^(٤) ، وقوله عز وجل : ﴿ أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا بَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ ... ؟ ﴾ ^(٥) ، وقوله سبحانه :

(١) المرجع السابق / ٣٤٨ - ٣٥٠ .

(٢) السابق / ٣٥٢ - ٣٥٣ . ومع ذلك فسوف يقول بعد قليل (ص ٣٦٢) إن

المشركين في اجتماع العقبة قد ناقشوا مع الرسول مسألة تأسين حياته .

(٣) وبالمثل تذكر كاربن أرمسترونغ أن القرآن إنما يتحدث عن « إخراج » الرسول

والمسلمين (سيرة النبي محمد / ٢٢٨) .

(٤) محمد / ١٣ .

(٥) التوبة / ١٣ .

﴿ الذين أُخْرِجُوا مِنْ ديارهم بِعَمْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا : رَبَّنَا اللَّهُ ﴾ (١) . وهو بضميف قائلان إن لفظ « الهجرة » لم يَسُدْ قَطْ إِلَى الرسول في القرآن (٢) ، وإن الآية الثلاثين من « الأنفال » التي تتحدث عما كان المشركون ينتوونه بشأ ، الرسول عشية تركه مكة إلى يثرب لا تذكر إلا ثلاثة أشياء : الإثبات (أى الحبر) أو القتل أو الإحراج وما داموا لم يحبسوه أو يقتلوه فليس غير الإحراج ، وبخاصة أن الآية لا تشير إلى أن قريشا قد اجتمعت عشية الهجرة لتقرير مصير الرسول بل تشير إلى اجتماعات عدة بدأت مع بداية الدعوة لهذا العرص (٣) كما يقول إن آية ﴿ وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون ﴾ (٤) ، التي يقول ابن إسحاق إنه صلى الله عليه وسلم قد تلاها عند خروجه من بيته ليلة معادته مكة فكانت سبباً في أن أعمى الله فتية قريش المترصين له عند الباب فلم يروه ، إنما نزلت قبل ذلك بوقت طویل ، فضلاً عن أنها جاءت في سورتها في سياق الكلام عن النعت ، ومن ثم فلا صلة لها بالهجرة من قريب أو بعيد (٥) .

(١) الحج / ٤٠ .

(2) La Biographie du Prophète, pp 358 - 359 , 370 - 378

(٣) ليس في الآية ما يشير إلى اجتماعات عدة لقريش كما يقول الأستاذ المؤلف ، وهذا هو مصها : « وإذا بمكر بك الذين كهموا ليثيرونك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون والله خير الماكرين »

(٤) يس / ٩ .

(5) La Biographie du Prophète, p. 360

وتبدأ بسورة « الحج » وهل هي مكية أو مدنية . والمؤلف يعتمد ، في تصنيفها ضمن الوحي للمكي ، على بلاشير . والواقع أن الغالب بين علماء القرآن فعلا هو هذا الرأي ، لكنني لست مقتنعا به ، فسمات القرآن المكي غالبية على السورة : كالرد على مجادلة الكفار ، وتسفيه عبادتهم للأصنام ، والإشارة إلى سطوتهم بالمؤمنين واستعجالهم بالمذاب والقاء الشيطان في أنية السبي وتكذيب الأمم السابقة ، وخلوها حلولا تاما تقريبا من الآيات الطويلة . وإلى جانب ذلك ففي السورة عدد من الخصائص الأسلوبية التي تميز الوحي للمكي : فكلمة « الساعة » (بالألف واللام بمعنى « القيامة ») ^(١) قد وردت في غير سورة « الحج » سبعا وثلاثين مرة منها أربع وثلاثون في القرآن المكي وثلاث فقط في المدنية ، كما أن عبارة « أفلم يسيروا في الأرض » ^(٢) قد تكررت في القرآن ست مرات كلها في الوحي المكي ، ومثلها عبارة « نذير مبين » ^(٣) ، التي أتت في القرآن ١٠ مرات كلها في مكة ، وكذلك عبارة « أرسلنا ... (من) قبلك » ^(٤) ، إذ تقابلها في القرآن في خمسة عشر موضعا كلها مكية . أما وصف الله بأنه « الحق » ^(٥) فالغالب أنه مكي ، إذ تجده ست مرات في الوحي المكي ومرة واحدة في

(١) في الآية السابقة من سورتنا .

(٢) في الآية ٤٦ .

(٣) في الآية ٤٩ .

(٤) في الآية ٥٢ .

(٥) في الآية ٦٢ .

المدنى . وبشبهه فى ذلك صَرَبُ «المثل» (بإفراد كلمة « مثل ») (١) ،
فقد تكرر فى المكي ٩ مرات على حين لم يأت فى المدنى إلا مرتين ...
وهكذا . ومع ذلك فعلى السورة بعض الآيات التى يعلب على ظنى أن
تكون قد نزلت فى المدينة كآيات التى تتحدث عن الحج والصد عن
المسجد الحرام وقد وجدت الأستاذ درورة بعد السورة هو أيضا مكية (٢)

السورة إذن فى معظمها مكية ، وعلى ذلك فلا يسعى الاعتماد
عليها فى إثبات مدنية الآية التى تأذن للمسلمين بالقتال لكن ألا
يمكن أن تكون هذه الآية إحدى الآيات التى ربما نزلت بعد مغادرة
السي مكة ؟ من المكس هذا ، ومن الممكن أيضا أن تكون قد نزلت
بمكة بمناسبة بيعه العقبة الثانية ويكون استخدام الفعل الماضى فى قوله
تعالى « الدين أخرجوا من ديارهم » إشارة إلى هجرته الحبشة أو
للتأكيد على وقوع الهجرة إلى المدينة فى المستقبل مثل استخدامه فى
قوله عز شأنه : « اقتربت الساعة وانشق القمر » (٣) ، « ونفخ فى
الصُّور فَصَبَقَ مَنْ فى السماوات وَمَنْ فى الأرض إلا من شاء الله » (٤) .
وقد يعضد هذا التفسير قوله جل جلاله ، عن أولئك المظلومين المأذون

(١) فى الآية ٧٣

(٢) انظر كتابه « سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم - صور مفصلة من القرآن الكريم

وتحليلات ودراسات قرآنية » ١ / ١ / ١٥٣ (الهامش)

(٣) القمر / ١ .

(٤) الزمر / ٦٨ .

لهم بالقتال في آية سورة الحج : المذكورة آنفاً ، إنهم هم ﴿ الذين إن مكّاهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ﴾ (١) ، فاستخدام الجملة الشرطية لها معناه أن الله لم يكن قد مكّن لهم في الأرض بعد ، أي أنهم كانوا لا يزالون في مكة ، لأن التمكين في الأرض إما كان في المدينة حين أن المسلمين ، وتحرروا من الاضطهاد والتعذيب ، وأصبحت لهم دولة ، وأضحى بإمكانهم الردّ على القوة بالقوة .

وحتى لو قلنا إنها مدنية فلا يعني هذا أنه لم تكن هناك بيعة حرب بين السي وبنو البشيين المسلمين ، إذ من قال إن القرآن لا بد أن يصح على كل شيء أو ، إذا صحّ ، أن يكون ذلك قبل وقوعه ؟ وكذلك ليس شرطاً أن يكون هذا الشيء واجب التنفيذ بمجرد نزول الأمر أو الإذن به . ذلك أن الدكتور يقول : إذا كان الإذن قد نزل للمسلمين بقتال المشركين فلم لم نسمع أنهم قد وضعوا هذا الإذن موضع التطبيق ؟ أما الأذى الذي يدعى المؤلف أنه وقع على المسلمين في المدينة أشدّ وأضعف مما عرفته مكة فهو كلام مرسل دون دليل فلا ينبغي أن نعول عليه ونترك الثناء المتكرر في القرآن الكريم على أهل المدينة كما يتّنا فيما مضى من صفحات

ومثل ذلك ادعائه أن ابن إسحاق قد أراد ببيعة العقبة أن يعادل بيعة الرضوان ، وكأن ابن إسحاق كان رجلاً بلا ضمير ولا حياء ولا خشية من الله ، رجلاً تجرد حتى من شعور الاحترام لنفسه ، إذ ظلّ يكذب ويكذب

حتى أخرجنا من أوطاننا إلى أحرها ! إن المؤلف يشير إلى أن أحداً من المذكورين في العقبة الثانية لم يظهر اسمه في بيعة الرضوان ، فأراد ابن إسحاق أن يحتج لهم ببيعة تُذكر أسماءهم فيها ، وواحدة بواحدة ! ولكننا بدورنا نتساءل . ولمَ لم يذكر ابن إسحاق أسماء هؤلاء في بيعة الرضوان ويرجع نفسه بدل هذه النقطة الصويلة ؟ ألم يقل يا دكتورنا العزيز إن ابن إسحاق قد وضع نصب عييه ، وهو يكتب السيرة ، أن يحتج من شأن قرين ويرفع من شأن الأنصار ؟ فلماذا لم يضع أسماء أهل المدينة في عروة الحديدية وصلحها بدل أسماء أبي بكر وعمر وعثمان والمغيرة وابن عوف وابن أبي وقاص وعلى ، رضوان الله عليهم جميعاً ؟ وعلى أية حال فهذه الأسماء الملكية ليست هي أسماء الدين ببيعوا الرسول ببيعة الرضوان بل أسماء من اشتبكوا مع الكفار في حداث أو ما أشبه ، أما أصحاب البيعة فلم يذكر ابن إسحاق منهم ابناً واحداً . أى أن كل ما قاله الأستاذ الدكتور هو عراك في غير موضع ! ثم إن كلاً من عروة بن الربيع (القرشي) وابن حزم (الذي لم نكن له ، كما قلت ، صلة بالمدينة أو بأهلها) قد ذكر هذه البيعة ، كما رأينا البخاري يسجلها في صحيحه ، وهو من بخاري ، ولم يحدث أن سكن المدينة

وصحيح أن نلظ « الهجرة » لم يستد إلى الرسول في أى موضع من مواضع القرآن ، لكن هذا مقصور على الإسناد المباشر ، إذ إن في القرآن

أيضا هذه الآية التي تحاطب النبي قائلة : ﴿ يا أيها النبي ، إنا أحللتنا لك أزواجك اللاتي آتيتنك من قبلهن وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك وبنات عمك وبنات عماتك وبنات أخالك وبنات أخاتك اللاتي هاجرن معك ... ﴾ [فتح الآية ^(١)] ، فالمعنى هنا تدل على أن الرسول عليه السلام قد هاجر وهاجرت معه قريته أولئك . أما بالنسبة للمسلمين فقد تكرر في القرآن إسناد لفظ « الهجرة » لهم ، وهذا دليل على أنهم هاجروا ولم يخرجهم الكفار بالمعنى الحرفي . والآيات التي من هذا النوع كثيرة ومعروفة للقراء ، ولا داعي للاستشهاد بشيء منها . أما الآيات التي تتحدث عن « الإخراج » فهي تقصد المعنى المجازي ، إذ إن الكفار ، بتضييقهم على المسلمين في دينهم ودنياهم وإيذائهم لهم وتعذيبهم إياهم ، قد جعلوا عيشتهم في مكة مستحيلا ، وبنات من الحثم للتفكير في بلد آخر يتفلسفون فيه هواء الحرية والأمن والكرامة فهاجروا إلى المدينة . فهذا التضييق والتعذيب الذي ألجأهم إلى الخروج هو بمثابة « الإخراج » لهم ، وهو ما يسمى في البلاغة « مجازا مرصلا » . ومثله قوله سبحانه يخاطب رسوله عقب غزوة بدر . ﴿ كما أخرجهم ربك من بيتك (أي لملاقاة المشركين) بالحق ﴾ ^(٢) ، وقوله عز من قائل عن بني النضير ﴿ هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول

(١) الأحزاب / ٥٠ .

(٢) الأنعام / ١٠٠ .

الحشر ﴿١﴾ ، وقوله جلّ جلاله محذرا آدم وحواء من إغواء إبليس لهما : ﴿ فلا يُخْرِجُكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴾ (٢) .

ثم لو كانت قريش هي التي نفت الرسول وأخرجته من دياره فكيف يصبر مطاردتها له هو والصديق واحتساءهما منها في العار لا يحميهما إلا الله سبحانه كما جاء في القرآن الكريم : ﴿ إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في العار ، إذ يقول (أى الرسول) لصاحبه (أبى بكر) : لا تخزن ، إن الله معنا فأنزل الله مكيبته عليه وآيته بجود لم نروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى . وكلمة الله هي العليا ، والله عزيز حكيم ﴾ (٣) وإن تسمية الآية لمعادرة الرسول مكة « إخراجا » للدليل على ما نقوله من أن « الإخراج » في هذا السياق هو إخراج مجازي ، والأول كان القرشيون قد أخرجوه عليه السلام فعلاً فلماذا طاردوه ، وقد كان في أيديهم فأخرجوه ؟ إن هذا لهو العبث بعينه ثم لماذا يختبئ الرسول وصاحبه في العار ويحاف أبو بكر ويحزن لو كانت قريش هي التي أخرجتهما ؟ إن الاختباء ونحوف لا يكونان إلا لأن هناك مطاردة بعبة القبض عليهما . ولكن لماذا يريد القرشيون القبض على محمد ورفيقه ؟ يقول ابن إسحاق إنهم كانوا قد قرروا قتله عليه السلام ، لكنه استطاع أن يفلت من أيديهم .

(١) الحشر / ٢ .

(٢) طه / ١١٧ .

(٣) التوبة / ٤٠ .

وبهذا تتضح الصورة ، ويتضح أنه ، رحمه الله ، لم يأت بشيء من عنده ، فالذى قاله يقوله كل المؤرخين وكتاب السيرة وجامعى حديث الرسول ، اللهم إلا د. مراد ، فهل هذا معقول ؟ وسواء أتلا رسول الله ، وهو خارج من بيته ماراً بثبيان قريش المتريصين به عند بابه ، آية سورة « يس » أم لم يقلها فإن هذا الأمر لا يقدم ولا يؤخر . ومع ذلك نحب ألا نفوتنا الفرصة لتبين أن اعتراض الأستاذ الدكتور بشأن هذه الآية هو اعتراض فى غير موضعه ، لأنه لا ابن إسحاق ولا غير ابن إسحاق قد قال إنها نزلت فى تلك المناسبة . وعلى أية حال فالآية المذكورة لا تتعلق بالبعث بل تشير إلى طمس الله على بصائر المشركين بعينهم وكفرهم فلا يؤمنون . وليس هناك ما يمنع من الاستشهاد بها فى مثل موقف الرسول عند مغادرته بيته ليلة الهجرة ، مثلما نستشهد ، فى غير مواطن الحرب والسلاح ، بقوله تعالى عن غزوة بنى قريظة : ﴿ وكفى الله المؤمنين القتال ﴾ ^(١) ، ومثلما خاطب الصديق الكفار وهم يحاولون خنق الرسول فى المسجد الحرام بقول مؤمن آل فرعون لآل فرعون . ﴿ ألقوا رجلاً أن يقول ربي الله ، وقد جاءكم بالبيات من ربكم ؟ ﴾ ^(٢) . هل يُعقل أن الأستاذ المؤلف يجهل هذا ؟ لا أظن ، فمن فى مثل علمه لا يمكن أن يجهل شيئاً كهذا . أليكون هذا إذن من ألوان المماحكة بعية محالفة ابن إسحاق وتخطئته

(١) الأحزاب / ٢٥ .

(٢) نظر ابن هشام / ١ / ٢٥٩ .

بكل سبيل ؟ أعتقد أن الأمر هو ذلك .

على أن القصة لمَّا انتهت فصولها ، فالدكتور مراد يرى أنه ليس ما يسمع من تخيل أن يكون الرسول قد طلب من القبائل غير القرشية ، المسلمة منها والمتعاطفة مع الإسلام على السواء ، استقبال المصطفين من مسلمي مكة عندهم ، وذلك بناء على قوله سبحانه في سورة « النحل » . « والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنسبوتهم في الدنيا حسنة » ^(١) وهو يضيف قائلا إن أفراد هذه القبائل هم من الأنصار الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم ، مثلهم في ذلك مثل أهل المدينة سواء بسواء ، وإن هذه الهجرات إلى مناطق الجزيرة العربية المختلفة هي التي ساعدت على انتشار الإسلام فيها ^(٢) .

والواقع أن المسألة كلها ، كما قال د. مراد بنفسه ، ليست أكثر من تخيل في تحيل . أما الآية المذكورة فهي أشبه بأن يكون المقصود بها مهاجري الحبشة ، إلا إذا كانت مدنية ، فعندئذ تكون الإشارة فيها إلى الهجرة للمدينة . كذلك فقد يئنا مرارا في هذا البحث أن الأنصار ، بنص القرآن الذي لا لبس فيه ، هم مؤمنو يثرب ، الذين فتحوا بلادهم وقلوبهم وبيوتهم وجيوبهم لإخوانهم المهاجرين .

وفي أواخر الكتاب يؤكد الكاتب العاضل أن أحدا لم يحم الرسول في مكة إلا الله سبحانه وإلا للمسلمين ، وأنه لو حدث أن بي هاشم

وَبَنِي الْمَطْلَبِ قَدْ حَمَوْهُ لِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِالْقُرْآنِ مِثْلَ مَا أُشَارَ إِلَى رَهْطِ
 شُعَيْبٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى عَلَى لِسَانِ كُفَّارِ قَوْمِهِ : ﴿ وَلَوْ لَا رَقَّطُوكَ
 لَرَجَمْنَاكَ ﴾ وَرَدَّ شُعَيْبٌ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ : ﴿ يَا قَوْمِ ، أَرَهْطِي أَعَزَّ عَلَيْكُمْ مِنْ
 اللَّهِ ؟ ﴾ (١) . ثُمَّ يَضِيفُ قَاتِلًا إِنْ الْأَنْبِيَاءَ السَّابِقِينَ هُمْ أَيْضًا لَمْ يَحْمَهُمُ
 أَحَدٌ إِلَّا اللَّهُ . وَهُوَ يَشِيرُ فِي هَذَا الصَّدَدِ إِلَى جَعْلِهِ سَبْحَانَهُ النَّارَ بِرَدِّهَا
 وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ، كَمَا يَرُودُ الْآيَاتُ الَّتِي تُؤَكِّدُ أَنَّ اللَّهَ وَحْدَهُ هُوَ
 الْحَامِي وَتِلْكَ الَّتِي تَحْذَرُ مِنَ الرُّكُونِ إِلَى الْكُفْرَانِ وَتَتَوَعَّدُ بِالنَّارِ مَنْ يَرْكُنُ
 إِلَيْهِمْ ، وَيَقُولُ : لَوْ لَمْ يَشْعُرِ الرَّسُولُ بِأَنَّهُ كُفَّاءٌ لِمُوَاجَهَةِ الْكُفْرَانِ وَأَنَّهُ
 مُسْتَفْزٍ عَنْ حِمَايَتِهِمْ مَا اسْتَطَاعَ أَنْ يُوَدِيَ وَاجِبَهُ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى دِينِ
 اللَّهِ ، ثُمَّ يَضِيفُ أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَا يَظْهَرُ فِي الْقُرْآنِ خَائِفًا فِي
 مَكَّةَ أَبَدًا عَلَى عَكْسِ مُوسَى ، الَّذِي صَرَخَ قَاتِلًا لِرَبِّهِ : ﴿ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ
 نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴾ (٢) ... وَهَكَذَا (٣) .

وَقَدْ سَبَقَ أَنْ وَضَحْنَا تَفْصِيلًا أَنَّ حَصْرَ الْحِمَايَةِ فِي اللَّهِ سَبْحَانَهُ
 لَا نَعْمَى إِلْعَاءَ دَوْرِ الْخَلُوقَاتِ ، فَلَا دَاعِيَ إِذِنْ لِإِعَادَةِ الْقَوْلِ فِيهِ هُنَا .
 لَكِنِّي أَحْبَبْتُ مَعَ ذَلِكَ أَنْ أَصِيفَ أَنَّ آيَتِي سُورَةُ « هُود » تَدْلَانِ عَلَى
 عَكْسِ مَا يَرِيدُ الْأَسَازُ الدَّكْتُورُ ، فَالْقُرْآنُ هُنَا بِشِيرٍ مِنْ طَرَفٍ خَفِيٍّ إِلَى
 مَحْفِ مَوْقِفِ مُشْرِكِي مَكَّةَ ، الَّذِينَ كَانُوا يَرَاعُونَ جَانِبَ أَهْلِ الرَّسُولِ وَلَا

(١) هُود / ٩١ - ٩٢

(٢) الْقَصَصُ / ٣٣ .

يمكروون في عصب الله . ولقد قال المؤلف نفسه إنه لم يحم الأبياء السابقين أحد إلا الله ، وها هي ذى آيات القرآن تقول بنص صريح إن قوم شعيب كانوا يكفون عنه أداهم مراعاةً لهبطه ، ومعنى ذلك أن الله سبحانه بسبب الأسباب . أليس كذلك ؟ ومثل هذا قول المؤلف إن المسلمين في مكة كانوا يحمون رسولهم . ثم إنه قد أشار إلى معجزة النار التي لم تحرق سيدنا إبراهيم بوصفها طريقة من طرق الحماية الإلهية للرسول الكرام ، لكنه في ذات الوقت أنكر على ابن إسحاق لجوءه إلى المعجزات لتفجير حماسة الله لرسوله كقولته مثلاً إنه سبحانه قد غشي على بصر أم جميل زوجة أبي لهب فلم تر الرسول ، الذي كانت تعتزم أن تدق رأسه بهجر في بعدها^(١) . أليس هذا تناقضاً ؟ بلى هو كذلك ، فما سره يا ترى ؟ السر هو الرغبة العارمة في تشويه صورة ابن إسحاق وتكذيبه .

أما تحذير القرآن للمسلمين من الركون إلى الدين كفروا حتى لا تصيبهم النار فلا صلة بينه وبين رضا الرسول عليه السلام بحماية أهله له ، إذ الركون هو الرضا بكفر الكفار والاضياز إليهم ، والرسول لم يفعل ذلك في أية لحظة من حياته . وقد وجدناه يرد على عمه قتلاً بكل حسم حين طلب منه شيئاً من المهادنة : « يا عم ، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أك هذا الأمر حتى

(١) المرجع السابق / ٢٧٨ - ٢٧٩ .

يُظْهِرُهُ اللَّهُ أَوْ أَهْلَكَ دُونَهُ مَا تَرَكْتَهُ . بل لم يحدث قطُّ أن قال إن عمه
هذا ناج يوم القيامة . فإين الركون إلى الكفار هنا ؟

وبالسببة لقول موسى لربه : ﴿ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ (أَيْ مِنْ قَوْمِ
فِرْعَوْنَ) نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴾ فَقَدْ رَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِ مَطْمَئِنَّا لَهُ بِقَوْلِهِ :
﴿ سَنَشُدُّ عَصِيكَ بِأَحْيِكَ وَنَجْعَلُ لَكَمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ﴾ (١) .
وهذا قريب من قوله عز وجل لرسوله محمد . ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ،
وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ * إِنَّا كَفَيْكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ * الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ
اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ عَلِمْنَا أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا
يَقُولُونَ ﴾ (٢) ، وقوله له أيضًا : ﴿ الْمَص * كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ ، فَلَا يَكُنْ
فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِمَّا لَتُنْتَبِرَ بِهِ ﴾ (٣) ، وقوله له في مسألة زيد وزينب :
﴿ وَتَحْشَى النَّاسَ ، وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَحْشَاهُ ﴾ (٤) .

وفي نهاية الرسالة يعود د. مراد فيكرر اتهاماته لابن إسحاق بأنه أراد
محاياة العباسيين وأهل المدينة والانتقام من خالد بن الوليد ، الذي سبى
جده ، ثم يعلق على ذلك قائلًا إن ابن إسحاق لم يكن ولن يكون أول
مؤرخ أو كاتب سيرة يرى الأحداث من خلال أهوائه وقد سبق أن

(١) القصص / ٢٥ .

(٢) الحجر / ٩٥ - ٩٧ .

(٣) الأعراف / ١ - ٢ .

(٤) الأحراب / ٢٧ .

رددنا على هذا كله وبيننا ما تنطوى عليه هذه الاتهامات من ظلم وإجحاف وقسوة لا مَرُغ لها البتة . ولكنني أحب أن أضيف إلى هذا أن البشر لا يخصصون دائما لأهوائهم ، وحتى الذين يحصعون لها هم درجات في ذلك . أما التسمية بين الجميع في السوء واتهام الجميع بالكذب والحرص على الدنيا والحرارة على الباطل وعدم الخوف من الله أو حتى من حكم المجتمع والتاريخ ، فذلك حكم غير مقبول ، وإلا فعلياً ألا نصدق أن هناك رجالاً وساء لا يزنون ولا يسرقون ولا يرتشون ولا يمشون ولا يكذبون ، وأن نقيم آراءنا في الناس على أنهم جميعاً زناة ولصوص وغشاشون ومرشون ومنافقون . أليس لكل فرد من البشر غرائز وميول ومصالح واتجاهات سياسية وعقدية معينة ولا بد أن يحضروا لها في نظر مؤنسا ؟ وهل يرضى هو أن يقال عنه ، مع احترامى له ، إنه قد مالا دوائر الاستشراق والدعاية الغربية ضد الإسلام حينما كتب رسالته هذه ما داه قد كتبها في جامعة عربية تتبع دولة مصرانية معروفة بمداتها للجهنم وبهمها التشكيك في تاريخها وكل ما نعتز به من تراثنا ؟ فانظر ، أيها القارئ ، إلام تأخذنا أحكام الأستاذ الدكتور !

(٣)

وبعد ، فهل معنى ذلك أن سيرة ابن إسحاق وابن هشام بريئة تماما من العيوب وأنه لا يحق للأستاذ الدكتور أن ينتقد أى شيء فيها ؟ الحق أن فى الجواب على هذا السؤال بالإيجاب ظلما للواقع غير مقبول ، ففى كتاب ابن إسحاق أشياء لا يهش لها العقل أو على الأقل لا يطعن إليها تمام الاطمئنان .

فمثلا السبب الواصل بين آدم ومحمد عليهما السلام الذى تبدأ به السيرة لا يستريح إليه ضمير الباحث العلمى . لقد كان العرب القدماء يشقون بذاكرتهم ومن ثم بالروايات الشفهية كثيرا ، لكن يسنون أن يفرق بين رواية من هذا النوع لا تصل لأكثر من عدة أجيال وبين رواية أخرى تدعى إمكان الوصول إلى فجر البشرية الأول . إن عيث الذاكرة فى أمثال الرواية الأولى يمكن تلافيه بدرجة أو أخرى عن طريق علم الجرح والتعديل ، أما فى أمثال الرواية الثانية فلا مجال للتقيد العلمى فى تقويم أخلاق الرواة وضبطهم ، إذ إننا لا نعرف شيئا عن هؤلاء الرواة أصلاً ، بل لا نعرف كم من الأجيال (بل قل . كم من القرون ، أو بالأحرى كم من آلاف السنين) قد قطعنها تلك الروايات ! وقد أسعدنى أن أجد عدداً من علمائنا القدماء يرون هذا الرأى مثل عبد الله بن مسعود وعروة بن الربير ومالك بن أنس وغيرهم (١) .

(١) انظر ابن كثير / البدلية والنهاية / دار المد العربى / ١٤١١هـ - ١٩٩٠م / ١ /

كذلك لا أستطيع أن أطعن إلى النبوة المنسوبة إلى الكاهن اليمنى
 سَطِيحَ انتى تعبر رؤيا ربيعة بن نصر (أحد ملوك اليمن قبل الإسلام)
 بأن الأحباش سوف يحتلون بلاده لكدا من السين ثم يخرجون منها
 ويتركونها لأهلها فيحكمهم ملك منهم (هو دوزن) وبطل في
 السلطان حتى يظهر نبي كريم نسب كيت وكيت يكون الملك في قومه
 إلى آخر الدهر حيث يبعث الله الموتى ويحاسبهم فيحس إلى المحسنين
 منهم ويسئ إلى من أساءوا ومثلها أو قريب منها تعبر الكاهن اليمنى
 الآخر (شق) لفسر الرؤيا ولا تقف الرواية في ادعاء معرفة هذين
 الكاهنين العيب عند هذا الحد بل تزيد فترعم أنهما استطاعا بكل يسر
 معرفة مصموم رؤيا الملك من تلقاء أنفسهما دون أن يجبرهما هو بشيء
 مما رآه فيها (١).

ومما نوره السيرة من روايات لا تُفح العقل خير الرؤيا النسي رآها
 عبد المطلب جد الرسول في مامه بالكعبة لأربع ليال متتابعات تأمره
 بحمر زمزم ، ولكن باسم مختلف في كل مرة . فهي طيبة في الأولى ،
 وبرة في الثانية ، والمفضونة في الثالثة ، وزمزم في الرابعة . وصورة الأمر
 والإجابة عليه واحدة في كل مرة : فالهاتف الذي يأتي في المنام يقول :
 احفر طيبة (برة / المصونة / زمزم) ، فيرد الشيخ قائلاً : وما طيبة ؟ أو
 وما برة ؟ إلح . وهي الليلة الرابعة يحياه الهاتف على مزاله الأخير
 « وما زمزم ؟ » بقوله : « لا تنزف أبدا ولا تدم . نسقى الحجاج الأعظم .
 وهي بين القرث والدم . عند نقرة الغراب الأعصم . عند قرية

النمل^(١). وواضح مدى التعامل فى القصة ، وبخاصة فى هذه الأسجاع وفى تكرار الرؤيا لأربع ليالٍ متتالية مع تغيير اسم البئر فى كل مرة ، وكأنها أحجية لا أمر سماوى يقصد به تسهيل الحفر ! وفوق ذلك فقد ذكر ابن إسحاق قبيل هذا الكلام أن عبد المطلب قد تولى أمر سقاية الحجيج بعد عمه المطلب ، الذى رُلِّها فيما يبدو بعد أخيه هاشم^(٢) ، وهو ما يعنى أن الماء كان متوفرا للحجاج قبل ذلك . ونحن نعرف أن زمزم قد نبعت منذ طعمولة إسماعيل الأولى فكان الحجاج يشربون منها ويستقون . فمن أين كان الحجيج يحصلون على ما يحتاجونه من ماء قبل أن يعبد عبد المطلب حفرها ؟ هل كانت هناك آبار أخرى تقوم بهذه الحاجة ؟ إن كل ما يقوله ابن إسحاق فى هذا السياق هو أن جرهم قد تركت مكة بعد أن دَفَّتْ رِمْمٌ إلى أن جاء عبد المطلب وحفرها^(٣) . صحيح أنه قد كرَّرَ ذكر السقاية وانتقالها عبر جدد السبي عليه السلام حتى وصلت إلى عبد المطلب جدُّه الأديب ، لكنه لم يعبأ نفسه بالإجابة على السؤالين اللذين طرحاهما أنا .

وربما لم يتعدَّ صنيع عبد المطلب فى زمزم أنه رآها توشك أن تُردَمَ أو تحتاج إلى توسعة أو صيانة ، وربما رأى فى المنام رؤيا تخشع على ذلك ، فقام بالأمر . أما هذه التهاويل والأحاجي والأسجاع فأغلب الظن أنها

(١) المرجع السابق / ١ / ١٣١ - ١٣٢ .

(٢) السابق / ١ / ١٣١ ، ١٢٥ وكانت السقاية فى أجداد السبي السابقين على

هاشم هذا على ما يذكر ابن إسحاق فى الصفحات السابقة .

(٣) السابق / ١ / ١٠٢ .

خيال قصصى جميل ، والله أعلم ^(١) !

ومثلها في الخيال ، فيما يدولى ، تلك الأشعار التي رثت بها عبد
المطلب بناته الست ، والتي يقول ابن هشام عنها : « ولم أر أحدا من
أهل العلم بالشعر يعرف هذا الشعر » . وفوق هذا فمن العريب أن يفكر
عبد المطلب وهو في فراش الموت في جمع بناته حوله لا لشيء إلا لكي
يرثيه . وعلى كل حال فمن الطبيعي في مثل هذه الحالة أن تحاول
بنات الإنسان إدخال الطمأنينة على نفسه وتتمنى طول العمر له لا أن
يجبهه بشيء مغرول كهذا يدخل الغم على من المحتضر . ثم هل
كان جميع عمات الرسول شاعرات ؟ ولبي كان أعمامه من هذا كنه ؟
وهل كان الجاهليون يعرفون « القدر » الذي ذكرته برة بنت عبد المطلب
في آخر رثائها له ؟ أما احتها أم حكيم فتصف أباهما بأنه كان « لينا
حين نشتجر العوالي » مع أن عبد المطلب لم يكن ، فيما نعرف ، من
أهل القتال . كذلك من العجيب أن تتحدث أميمة عن نفسها بضمير
المذكر فتقول : « وإني لبأك ما بقيت وموجع » ^(٢)

ولا يختلف عن ذلك ما يقال من أن حنينا قد أتى إلى هذا الكاهن أو
أن هاتما قد تكلم من داخل ذلك الصم مشرا بمحمد تلميحا أو
تصريحا ^(٣)

(١) وردت هذه القصة في « مغازي » ابن شهاب الزهري أيضا ولكن مختصرة في
مواضع ، وأكثر تفصيلا في مواضع أخرى (انظر « المغازي النبوية » لابن شهاب
الزهري ١ / ٣٧ - ٣٩) .

(٢) انظر هذه المراتى وقصتها في ابن هشام ١ / ١٥٨ - ١٦٠ .

(٣) المرجع السابق ١ / ١٩٤ - ١٩٥ .

ومن الصعب أيضاً أن نتصور أنه كان بمستطاع خديجة ، رضى الله عنها ، معرفة الطريقة التى يمكن أن تثبت بها فى بداية الدعوة الأولى من حقيقة جبريل وهل هو ملاك أو شيطان ، إذ يقول ابن إسحاق إنها صبت من الرسول عليه السلام ، حينما يأتيه الوحي ، أن يجلس على فخذا الأيمن ثم على فخذا الأيسر ، فلما رآه قد ظهر له وهو على يمينها ثم رآه قد اختفى وهو على شمالها طمأنته بأنه ملاك لا شيطان ، إذ أتى لها فى ذلك الوقت المبكر جدا من فجر الإسلام بمعرفة مثل هذا المنيار ؟ بل من أين لها أن تعرف الفرق بين الملاك والشيطان إذا كان الرسول معه عليه الصلاة والسلام ، كما يفهم من الرواية ، لم يكن له دراية بذلك ، إذ لم يكن الوحي قد نزل بعد بأى حديث عن الملائكة والشياطين ؟ (١)

ويختم هذه للملاحظة بما ذكره ابن إسحاق رواية عن بعض من حضر بيعة العقبة الثانية من أنهم ، لما تمت البيعة ، سمعوا الشيطان يصرخ بصوت لم يسمع مثله من قبل فى علوه وفشاده محدثاً أهل مكة من الرسول محمد (الذى سمّاه « مدمماً » ، أستغفر الله) ومن جماعة يثرب (الذين سمّاهم « الصبابة » ، أى الخارجين من دينهم إلى دين آخر . يقصد الضالّين) ، فنهروا رسول الله صلى الله عليه وسلم وتوعّده (٢) . ويحق للإنسان أن يتعجب من هذه القصة ، إذ إن شياطين الإنس ،

(١) ٢٢٣ / ١ وقد سبق أن تناولت هذه المسألة بتفصيل أكثر قليلاً فى كتابي

« مصدر القرآن » (ص ٢٣ / هامش ١٩) .

(٢) سيرة ابن هشام ٦٧ / ٢ .

والحمد لله ، من الكثرة بحيث لا يحتاج الأمر إلى أن يتكلف أبو الشياطين ، على جلالة قدره ، أمر التجسس والصراخ بنفسه ، وبخاصة أن صراحه كان كالرصاص « الفشنك » الذي لا يصيب ولا يتكى ، فإن قريشا لم تسمعه ولم تكن له من ثم أية جدوى ، وضاع جهد أبي الشياطين على هذا الحرع عبثاً !

ومع ذلك لم يتعظ الشيخ إبليس بفشله واندحاره في العقبة وأبى إلا أن يأخذ على عاتقه مهمة الاشتراك مع القرشيين في البحث عن أنجع وسيلة للتخلص من رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يهاجر من مكة ويفلت من أيديهم إلى الأبد ، فذهب بنفسه كزرة أخرى إلى حيث كانوا مجتمعين في دار الندوة لتدبير طريقة تريحهم من الصداق الذي سببه لهم عليه السلام بالدين الجديد الذي جاءهم به ، واتخذ هيئة شيخ جليل من أهل نجد (ولا أدري كيف لم يستمعوا علمه ، وهو في نجد على بعد مئات الأميال منهم في مكة ، بما كانوا يذرونه لرسول الله أو مجيئه بهذه السرعة الملكية ، أو كيف اطمأنوا إليه وهم لا يعرفونه بل لم يسبق لهم أن رأوه مجرد رؤية) ، وأخذ يستمع إلى جدالهم حتى فاجأهم أبو جهل باقتراحه أن يجمعوا من كل قبيلة شاباً جليداً ذا سب وحسب ثم يعطوا لكل منهم سيفاً صارماً فيميلوا على محمد ميلة رجل واحد فيقتلوه فيتفرق دمه في القبائل جميعاً فلا تستطيع قبيلته محاربة هذه القبائل كلها ، وعندئذ آمن الشيخ إبليس على هذا الرأي ومدحه (١) أي أن إبليس قد كلّف نفسه كل هذه المشقة لا لشيء إلا

(١) المرجع السابق / ٢ / ٨٩ - ٩١ .

ليقول لهم : « أقول ما قال الرجل (يقصد أبا جهل) هذا الرأي الذى لا أرى غيره » ! ترى إبليس قد فرغت حياته من كل عمل فلم يجد إلا دور « اللطيفاتى » ؟

وهى سيرة ابن إسحاق ، إلى جانب ذلك ، عدد من المعجزات التى لا تقبلها بعض العقول والتى قد يكون لأصحابها الحق فى إنكار بعضها . لناخذ مثلاً ما روى عن أمة من أنها حين حملت به صلى الله عليه وسلم خرج منها نور أضواء قصور بصرى من أرض الشام ^(١) ، إذ ليست المسألة هنا مسألة قوة النور أو ضعفه بل مسألة المسافات الشاسعة التى لا يُلحِق معها أى نور بالغة ما بلغت قوته ، فضلاً عن أن أمة لم تكن نبيه حتى تنفع لها هذه المعجزة . ثم قد يتساءل بعض عن الحكمة فى حدوث هذه الآية ما دلم لم يطلبها أحد ولا أدت إلى أية نتيجة ولا فهمت أمة أنذاك مغزاهما إلا ما ذكر أنها قالت من أنه سيكون لابنها شأن ، مع أن أخبارها بعد ذلك معه عليه السلام تدل على أن ذكرى هذه الحادثة لم يكن لها فى نفسها أى وجود

وهناك معجزة أخرى للرسول عليه السلام وقعت فى مكة فى بدايات الدعوة ، إذ قابل رجلاً يدعى ركانة كان مشهوراً بقوة عضلاته وبراعته فى المصارعة ، فدعاه إلى الإسلام فلم يقتنع ، فعرض عليه أن يصارعه وعليه مرتين ، إلا أنه استمر فى رفض الإسلام ، فعندئذ أخبره أنه

يستطيع أن يدعو بشجرة هناك فتأتيه ثم يأمرها فتعود إلى مكانها ، وأتبع القول بالفعل ، فما كان من ركانة إلا أن هرول إلى قومه وهو يصرخ دهشاً من السحر العجيب الذي يتمتع به محمد (١). وسواء أصبحت هذه المعجزة أم لا فإن ذلك لا يقدح في أمانة ابن إسحاق ، إذ هكذا سمع القصة ، وكان الجوّ العقلي والبصيرة لا يرى في أمثالها شيئاً ، وإن كنا ننظر الآن إلى الأمر من زاوية أخرى ونسأل : ألم يقل القرآن : ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ﴾ ؟ ثم ها هو ذا ركانة لم تؤثر فيه تلك الآية ولم ير فيها إلا سحراً ، فمادام كانت جدواها إذن ؟ بل ماذا كانت الجدوى من أن تكسر السماء المبدأ الذي أرساه مع مجيء الدين الجديد ، وهو عدم إرسال المعجزات ، التي ثبت أنها لا تؤدي إلى طائل ؟ على أن ابن إسحاق ، بالقياس لطائفة من كتاب السيرة المتأخرين ، يُعَدُّ مُقْلاً في هذا الباب ، فمثل هذه المعجزات هي سيرته : لا تقع إلا بين الحين والحين البعيد . ثم إن الرسول عليه السلام لا يأتي بها عادة إلا للمسلمين ، وهو ما يمكن التوفيق بينه وبين الآية المذكورة بأنه لم يقصد بمعجزاته صلوات الله عليه إقناع الكافرين ، الذّيس ثبت أنها لا تجدي معهم ، بل تثبت المؤمنين أو إدخال السرور على نفوسهم .

ومن الملاحظات التي تلت النظر في سيرة ابن إسحاق أيضاً ما سبق أن أشار إليه د. مراد من أن الجزء المخصص من صفحاتها للمرحلة

المكية أقل كثيراً جداً من نظيره الخاص بالمرحلة المدنية . بيد أن هذا لا يطمئن في مصداقية ابن إسحاق ، فالرجل أدى ما بلغه . وأحب أنه من الطبيعي ألا تُحفظ أخبار السبي في بدايات الدعوة ، أيام أن كان مصطفيها مطارداً تحطط له المؤامرات هو وأتباعه وليس له شيء من القوة والسلطان ، بنفس الاهتمام الذي حطت به وقائع حياته وصراعاته مع قوى الشرك والعتاق في المدينة بعد أن استعلت الدعوة وصار يشتر بها بجلء الفم دون ضغط أو إرهاب وأضحى لها دولة ذات أنياب وأظافر وانطلقت مسيرتها بكل قوة وثقة .

وقد كنت أقرأ ، وأنا أعد هذه الدراسة السيرة السوية التي وضعتها المنشركة البريطانية كارين أرمسترونج فلست نظري توافقها بوجه عام معى في هذا التحليل ، إذ قالت إن « المادة عن حياة محمد في مكة إبان سنوات نبوته الأولى قليلة ، ففى ذلك الوقت وحيما كان شخصية معمرة نسبياً لم ير أحد أهمية تسجيل وقائع دعونه هاك . أما خلال السنوات العشر الأخيرة من حياته بعد هجرته للمدينة فقد أصبح المسلمون على وعى أن التاريخ يتم صعه أمام أعينهم المشرقة . ولهذا تم تسجيل الأحداث بتفصيل أكثر » ^(١) . ويمكن أن نصيف إلى البعد الرماني ها البعد المكاني ، إذ من الطبيعي تماماً أن نعى ذاكرة سكان المدينة من مهاجرين وأنصار ما وقع فى مدينتهم ، بحلاب الوقائع التي

(١) كارين أرمسترونج / سيرة النبي محمد / ٧٥

جرت في مكة البعيدة التي أصبحت تنتمي إلى الماضي حتى إن المهاجرين أنفسهم لم يعودوا ينتسبون إليها وكأنها ليست بلدتهم الأصلية. ثم إن أحداث مكة لم تكن تقع عادة إلا أمام أفراد قلائل ، إذ كانت غالباً أحداثاً فردية طرفاها الرسول مثلاً أو واحد أو ثلثة محدودة من أتباعه مع أمثالهم من المشركين ، أما في المدينة فقد كانت الأحداث تمس الدولة كلها في صراعاتها السياسية والحربية مع اليهود والمنافقين والقبائل الوثنية ودولة الروم وفارس

ومع ذلك فقد يقال إن ابن إسحاق قد أفاض رغم هذا في بعض حوادث مكة ، وبخاصة تلك المتعلقة بحمر زمزم وحماية أبي طالب للرسول عليه السلام . ولعلّ الجواب يكمن ، فيما يحصر بشر زمزم ، في أن ما قيل عنها هو خيال قصصى تمتع تهاوى القوس إلى ترويده وسماعه ، أما فيما يخصّ أبا طالب وحيلولة بين قريش وإيذاء ابن أخيه صلوات الله عليه ، فإن كل كتب السيرة ، حتى السابق منها على ابن إسحاق ، تُجمّع على وقوع هذه الحماية . كل ما في الأمر أن بعضهم لا يروونها بالتفصيل الذي يرونها به ابن إسحاق . وليس من السهل عندي اتهامه بالكذب أو التزيد في هذا الأمر ، بل الصواب في رأيي أنه قد وصله من الأخبار في هذه المسألة ما مالت نفسه إلى قبوله وإثباته كما هو ، على حين أن بعضاً آخر ممن كتبوا السيرة ، وبخاصة من السابقين عليه ، قد أثروا الإيجاز . وعلى أية حال فهذه الأخبار التي تبدو لنا كثيرة إنما هي في الغالب شيء واحد تقريباً كرّر بأساليب متنوعة .

ومما بلغت النظر أيضاً في سيرة ابن إسحاق مما يمحس أن يؤخذ عليه أنه قد يورد في الحادثة الواحدة أكثر من رواية ثم يكتفى بوصف الروايتين أو الروايات المختلفة جبا إلى جنب دون أن يحاول الترجيح بينها أو اختيار إحداها ونفى الأخرى ومن ذلك الروايتان اللتان حكاهما في تعليل إرجاع حليلة السعدية محمداً الصغير إلى أهله بحكمة قبل أن تكتمل فترة رضاعه عندها ونقول الرواية الأولى إن ابنها الصغير ، بعد مقدّم من محمد بشهر ، رأى رجلين عليهما ثياب بيض أصحبا أحده من الرضاع وشقا بطنه ، أما على الرواية الثانية فإن نفرا من نصارى الحبشة وآوّه مع مرضعته فعرضوا عليها أن يأخذوه إلى ملكهم لأن له شأنًا ، فحافت عليه وأسرعت بإعادته إلى أمه ^(١) . لكن من السهل الدفاع عن ابن إسحاق ، فقد رأى أن الأمانة تقتضيه أن يسوق الروايتين ككتبيهما وترك للقارئ مهمة الترجيح بينهما ، إذ ربما بدنا له متساويتين بحيث لا يستطيع هو أن يؤدي هذه المهمة .

ومثل ذلك يقال عن الروايتين اللتين ساقهما في إسلام عمر بن الخطاب . فهناك رواية تقول إنه كان قاصداً يوماً دار الأرقم في ظاهر مكة يعي إيداء الرسول عليه السلام فقابله أحد أفراد قبيلته ممن كان قد أسلم سرّاً فحفره من معبة ما يتوهم وطلب منه أن يتعهد أمور أهل بيته بدلا من ذلك وأهمهم أن أحته وزوجها قد أسلما ، فما كان منه إلا أن

قصد إلى يتيهما لسمع هيمّة وهو يقترب منه ، فلما شعرا به سكنت الهيمّة . وبعد شيء من الجدال حول حقيقة إسلامهما قام فيطش بهما ثم لما رأى الدم يسيل من رأس أخته داخلته الرقة وطلب أن يظلمعه على الصحيفة ، التي ما إن اعتسل وأنشأ يقرأ فيها حتى لان قلبه للإسلام وأعلن أنه سيذهب إلى الرسول ليعلى أمامه تحوله إلى الدين الجديد . أما الأخرى فتجعل إسلامه رضى الله عنه فى الكعبة ، إذ قصد إليها ليؤدى الطواف فرأى رسول الله صلى أمامها فاعتنأ له خلف كسوتها لعله يروعه ، لكنه ما إن سمع الرسول يتلو القرآن حتى انمط قلبه إلى الإسلام وبكى . ثم لما انصرف الرسول عليه السلام تبعه حتى لحقه ، وبعد حوار قصير صارحه بأنه يريد الدخول فى دينه (١) .

ولا ينبغي أن يغيب عن بالنا أن هذه الروايات ، كما قلنا مرارا ، كانت تتناقل شفاها . وإذا كنا اليوم ، رغم اعتمادنا على التسجيل فى معظم أمور حياتنا ، كثيرا ما نجد خلافا فى مثل هذه الأشياء بين مذكرات شهود العيان التى قد تكون سَجَلَتْ أَوَّلًا بأول ، فما بالك بالروايات الشفوية التى اعتمد عليها ابن إسحاق فى تأليف « سيرته » ؟ أريد أن أقول إن مثل هذه الاختلافات ، وهى عنده بحمد الله قليلة ، ينبغي ألا تتخذ حجة على أن عمله لا يوثق به . وأحيرا وليس آخرا فإن

ابن إسحاق لا يتفرد بهذا بل يشاركه فيه تقريباً جميع المؤرخين القدماء وكتاب السير وعلماء الحديث .

وما يمكن الأخذ فيه والرد من كلام ابن إسحاق (وغيره من كتاب السيرة) المسائل الإحصائية : فمثلاً كم كان عدد المهاجرين إلى المدينة على وجه الدقة ؟ وما أسماؤهم واحداً واحداً ؟ وهل قتل المسلمون من بني قريظة بعد حياتهم الحياة العظمى كل الرجال والشباب ؟ أم هل اقتصر القتل على المقاتلة منهم بحسب ؟ وماذا كان عدد القتلى ؟ أهو تسعمائة ؟ أهو ستمائة ؟ كل هذه أسئلة واختلافات طبيعية ، فالقوم آنذاك لم يكون معروفين ما تعرفه الدولة الحديثة من السجلات والوثائق التي يقوم عليها موظفون كل مهمتهم كتابة الأرقام وحفظها ، بل كانوا يعتمدون على الغل الشغوى التقريبي . ونحن نعرف أنه حتى مع استعمال السجلات في حياتنا المعاصرة فإن الأمر لا يسلم من وجود اختلافات في التقدير والإحصاء في بعض الأحيان لهذا السبب أو ذاك : كأن يكون الشخص المسؤول عن التقييد غير دقيق أو له أرب في التلاعب بالأرقام ، وقد تأتبه أوامر عليا بالتدليس ، أو ربما لا تتوافر له الأعداد الحقيقية بسبب بعض الظروف ، فما بالنا إذن بالإحصاءات المذكورة في السيرة النبوية وأمثالها ؟

ولأحد عدد القتلى من بني قريظة مثلاً على ذلك فكل ما يذكره ابن شهاب الزهري في « مقاربه » أن سعد بن معاذ قد حكم « بأن تقتل

مقاتلتهم وتقسّم أموالهم وتُسبى ذراريهم « ولا شيء غير ذلك ^(١) كم
كان يا ترى عدد هؤلاء المقاتلين ؟ لا نجيبنا « المغازى » . فإذا تحولنا
إلى ابن هشام وجدناه يذكر أن سعداً قد حكم بقتل « الرجال »
لا المقاتلة وحدهم وأن المقتولين كانوا ستمائة أو سبعمائة ، وإن كان
هناك من يريد فجعلهم ما بين الثمانمائة والتسعمائة ^(٢) . أما تاريخ
الطبرى فيذكر هذا وذاك ^(٣) وفي « جوامع السيرة النبوية » لابن حزم
لا نجد إلا حكم سعد بأن « نَقَلَ الرجال » وأنهم « كانوا من الستمائة
إلى السبعمائة » قولاً واحداً ^(٤) ، على حين يفصل المقرئ مع بعض
الاحتلاف فيقول إن سعداً قد حكم بأن « يُقَتَّل من جرّت عليه
المواسى (أى من بلغ ربت عاتة فاحتاج إلى حنقها بالموسى) » ،
وإن القتلى كانوا ستمائة ، وإن جاء فى نسخة مخطوطة أخرى من
« إمتاع الأسماع » العبارة التالية : « وقيل : ما بين الستمائة إلى
السبعمائة ، وقيل : كانوا سبعمائة وخمسين » ^(٥) .

(١) ابن شهاب الزهري / المغازى النبوية / ٨٢ .

(٢) سيرة ابن هشام / ٣ / ١٤٦ .

(٣) والملاحظ أنه لم يرد فى الرواية الأولى ذكر لابن شهاب الزهري ، على عكس
الثانية ، التي عراها إلى ابن إسحاق ونقل كلامه بضمه (انظر تاريخ الطبرى / ٢ /
٥٨٧ - ٥٨٨)

(٤) ابن حزم / جوامع السيرة النبوية / ٢ / ٢٣٥ .

(٥) المقرئ / إمتاع الأسماع / تحقيق محمد عبد الحميد السبى / دار الأنصار /
١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م / ١ / ١٩٤ - ١٩٦ .

ولو أسرعنا الخطأ لنبلغ العصر الحديث فسنجد من يكررون ذكر الأرقام التي جاءت في كتب السيرة القديمة ، وهؤلاء هم الأغلبية ، ولكن نجد أيضاً بجانب هؤلاء من يحاول إعادة النظر في هذه النقطة : فعلى سبيل المثال يشكك الكاتب الهندي المسلم سيد أمير علي في تلك الأرقام القديمة قائلاً : « إنا حين تنتقل إلى الحديث عن هؤلاء الذين أُعْدموا فإن الإنسان يرى مس فوره كيف بولع في عددهم : فبعض يقول أربعمائة ، وآخرون يرتفعون به إلى تسعمائة . أما عبد المؤرخين البصاري (يقصد المشرقين) فيتلوح بين مئتمائة وثمانيائة . وفي رأيي أن هذه مبالغة غير معقولة ، فحتى أربعمائة تبدو عدداً مبالغاً فيه ، فإن الروايات تتفق على أن عدد القتال في بني قريظة كانت تتكون من ثلاثمائة درع وخمسمائة فرس وألف وخمسمائة سيف . ويدعو أن الروايات قد بالغت في هذه الأعداد لكي تكبر شأن العائم ولكن حتى لو قبلنا هذه الأرقام على علانها ، مع التنبيه إلى أن مثل هذه الأسلحة تتجاوز دائماً أعداد المحاربين إلى حد كبير ، فإنني أجدني مسوقاً إلى الاستنتاج التالي ، وهو أن عدد المحاربين لا يمكن أن يكون أكثر من مائتين أو ثلاثمائة ، وربما شأ الخطأ من الخلط بين الأسرى جميعاً وبين الذين أُعْدموا » (١) . وقد شايعه على هذا الرأي مواطنه الهندي

(1) Syed Ameer Ali Moulvi, A Critical Examination of the Life and Teachings of Mohammed, William and Norgate, London, 1873, p. 113 .

شراع على ، الذى يستكثر حتى أن يكون عدد القتلى قد بلغ المائتين ، وحجته أن الأسرى كلهم قد قُصروا ليلتهم فى بيت من بيوت المدينة ، ومثل هذا البيت لا يمكن أن يسع ذلك العدد الكبير (١) .

لكن هناك هديا مسلما ثالثا (هو د. بركات أحمد) لا يرضى بشيء من ذلك بل يؤكد أن عدد القتلى لا يمكن أن يتجاوز ستة عشر أو سبعة عشر ، وهو عدد القيادة المسؤولة عن قبيلة قريظة ، التى يرى أنها كانت تتكون من ستمائة شخص إلى تسعمائة ، لا سيما حين يكون بعض أفراد هذه القيادة قد قُتل فى الميدان ، وبعضهم قد وقع فى الأسر . وللكاتب تحليل مستفيض لذلك الموضوع وحجج متنوعة بسد بها رأيه ، ويستطيع القارئ أن يرجع إليها بنفسه إذا أراد (٢) .

ومن بين من تناولوا السيرة السوية فى العصر الحديث أيضا المرحوم محمد حسين هيكل ، وقد ألتم حطة ابن شهاب الزهرى فاكتفى بأن أورد فى كتابه عن « حياة محمد » حكم سعد بقتل « المقاننة » من

(1) Cheragh Ali, A Critical Exposition of the Popular Jihād, Calcutta, 1885, pp. 90 - 91 .

ويجد القارئ هذا الكلام فى ص ٩٢ - ٩٣ من ترجمتى لهذا الكتاب إلى العربية تحت عنوان « الجهاد فى الإسلام - عزمى نقدى » (مكتبة زهراء الشرق / ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م) .

(٢) انظر د. بركات أحمد / محمد واليهود - نظرة جديدة / ترجمة محمود على مراد / مكتبة الأسرة / ١٩٩٨م / ١٥٧ وما قبلها وما بعدها

بنى قريظة ولم يعرض من قريب أو بعيد لعدد هؤلاء القتلى ^(١) . وهناك أيضاً المرحوم محمد عزة درّود ، الذى سكت ، كما سكت ابن شهاب الزهري ^(٢) ، فلم يورد أية أرقام للقتلى من بنى قريظة ، ولكنه ذكر أن سعداً قد حكم بقتل الرجال ، لا المقاتلة وحدهم كما جاء فى « مغازى » الزهري ^(٣) .

فهذا مثال على الاختلاف الذى يمكن أن يدر حول ما أورده ابن إسحاق وغيره من كتاب السيرة من أرقام وإحصاءات . ولكن رغم ذلك فإن أحدا لا يمارى فى أن حكماً بالقتل قد صدر ضد بنى قريظة جزاء خيانتهم العظمى فى عزوة الأحزاب . أما رأى الشخصى فهو أن رقم السبعة عشر رقم جدّ ضئيل ، لأن هذا الرقم سوف يثير للتوّ سؤالاً هاماً وهو : وأين ذهبت بنو قريظة ، التى بقيت كلها تقريباً حسب هذا التحليل فلم يُقتل منها إلا نحو العشرين ؟ ذلك أننا لم نسمع بهم بعد ذلك عند المؤرخين وكتاب السيرة ، اللهم إلا بأحاد مهم . أغلب الظن أن من حاول من الهنود المسلمين فى العصر الحديث تقليل أرقام القتلى

(١) انظر د محمد حسين هيكل / حياة محمد / مكتبة النهضة المصرية / ١٩٦٥ - ١٩٦٦ م / ٣٩٩ .

(٢) وكما سكت البخارى ومسلم فلم يروا أى حديث عن تنميّة حكم سعد فعلاً (انظر هذه الملاحظة فى « محمد واليهود - نظرة جديدة » للدكتور بركات أحمد / ترجمة محمود على مراد / ١٥٣ - ١٥٤) .

(٣) انظر محمد عزة درّود / سيرة الرسل - صور مقتبة من القرآن الكريم ومجملات ودراسات قرآنية / ٢ / ٢٠١ .

الْقُرَاطِيِّينَ إِسْمًا أَرَادُوا الرَّدَّ عَلَى الْمُسْتَشْرِقِينَ وَالْمُبَشِّرِينَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ
مَصِيرِ أُولَئِكَ الْيَهُودِ الْمَجْرُمِينَ فُرْصَةً لِلدَّعَايَةِ ضِدَّ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ
وَاتِّهَامِهِ بِالْقَسْوَةِ . لَكِنْ ، كَمَا قَالَ شَرَاخُ عَلَى نَفْسِهِ ، « لَيْسَتْ مَسْأَلَةٌ
صَغِيرَ الْعَدَدِ أَوْ كَبِيرِهِ بِذَاتِ أَهْمِيَّةٍ مَا ظَلَمَ الْإِعْدَامُ مَتَمِّشِيًا مَعَ الْقَانُونِ
السُّوْلِيِّ لِإَقْلِيمٍ مَا » (١) . يَزِيدُ أَنْ يَقُولَ إِنَّ هَذَا الْحُكْمَ هُوَ الْجَزَاءُ الْوَفَاقُ
لِجَرِيْمَةِ الْخِيَانَةِ الْعَظْمَى . وَالْوَاقِعُ أَنَّهُ حَتَّى لَوْ كَانَ عِدَدُ قَتْلَى فَرِيْظَةِ قَدْ
بَلَغَ فَعَلًا التَّسْعِمَائَةَ فَإِنَّ الْحُكْمَ بِقَتْلِهِمْ لِهَوِّ أَحْفَ كَثِيرًا مِنَ الْحُكْمِ الَّذِي
يُنْزَلُهُ الْمَهْدُ الْقَدِيمُ (كِتَابُهُمْ لِلْقُدْسِ) بِأَعْدَاءِ الْيَهُودِ فِي مِثْلِ ثَلَاثِ
الْأَحْوَالِ ، إِذْ يَقْضَى بِإِبَادَةِ الْجَمِيعِ رِجَالًا وَسَاءً وَأَطْفَالًا وَشِيُوْنًا . جَاءَ
فِي مَفْرَءِ الثَّنِيَّةِ « (الْأَصْحَاحُ الْعَشْرُونَ / ١٦) : « وَأَمَّا هَؤُلَاءِ
الشُّعُوبُ الَّتِي يَعْطِيكَ الرَّبُّ إِلَهَكَ نَعِيْبًا فَلَا تَنْشَقْ مِنْهَا نَسَمَةً مَا »
أَيُّ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا رَحَمَاءَ بِالْيَهُودِ حَتَّى بِمُقْيَاسِ هَؤُلَاءِ الْأَرْجَاسِ
الْمُنَاكِيدِ ، وَمَخَاصِةٌ إِذَا وَضَعْنَا فِي الْإِعْتِبَارِ أَنَّ جَرِيْمَتَهُمْ كَانَتْ الْحَيَاةُ
الْعَظْمَى وَلَيْسَتْ الْهَزِيْمَةُ فِي حَرْبٍ شَرِيفَةٍ ! (٢)

(١) شَرَاخُ عَلَى / الْجِهَادُ فِي الْإِسْلَامِ - عَرَمٌ قُدَيْ / تَرْجَمَةٌ د. إِبْرَاهِيمَ عَوْس /

(٢) انْظُرْ مَاقِشَةً تَفْصِيْلِيَّةً لِهَذِهِ الْقَضِيَّةِ فِي كِتَابِي « مَصْدَرُ الْقُرْآنِ » / ٤٣ - ٥٣

المصادر والمراجع

- * د. إبراهيم عوض / ماذا بعد إعلان سلمان رشدي توبته ؟ دراسة فنية وموضوعية للآيات الشيطانية / المطبعة النموذجية / ١٤١٢هـ - ١٩٩١م .
- * د. إبراهيم عوض / محمد حسين هيكل أدبيا وناقدا ومفكرا إسلاميا / مكتبة زهراء الشرق / ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م .
- * د. إبراهيم عوض / مصدر القرآن - دراسة لشبهات المستشرقين والمبشرين حول الوحي المحمدي / مكتبة زهراء الشرق / ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م .
- * د. إبراهيم عوضين / سيرة ابن هشام وإنصاف الحقيقة / مقال بمجلة « الهلال » / مايو ١٩٩٨م .
- * ابن إسحاق / السير والمغازي / تحقيق د. سهيل زكار / دار الفكر / ١٣٩٨هـ - ١٩٧٩م .
- * البخاري / صحيح البخاري / عيسى البابي الحلبي .
- * د. بركات أحمد / محمد واليهود - نظرة جديدة / ترجمة محمود علي مراد / مكتبة الأمرة / ١٩٩٨م .
- * ابن حزم / جوامع السيرة النبوية / إعداد أحمد حسن جابر رجب / ملحق مجلة الأزهر / جمادى الأولى ١٤١٣هـ .

- * د. ص. مرجليوث / أصول الشعر العربي / ترجمة وتعليق ودراسة
د. إبراهيم عوض / نشر دار النهضة العربية وتوزيع مكتبة زهراء الشرق /
القاهرة / ١٩٩٦ م .
- * ابن سيد الناس / عيون الأثر / تحقيق محمد العيد الخطراوي
ومحيى الدين متو / مكتبة التراث بالمدينة المنورة ودار ابن كثير بدمشق
وبغروت / ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م .
- * شراغ على / الجهاد في الإسلام - عرض نقدي / ترجمة د.
إبراهيم عوض / مكتبة زهراء الشرق / ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م .
- * ابن شهاب الزهري / المغازي النبوية / تحقيق سهيل زكار / دار
الفكر / ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م .
- * الطبري / تاريخ الطبري / تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم /
ط٤ / دار المعارف .
- * عروة بن الزبير / مكتب التربية العربية لدول الخليج / الرياض /
١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م .
- * د. فاروق حمادة / مصادر السنة النبوية وتكوينها / دار الثقافة /
١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م .
- * كارين أرمسترونج / سيرة النبي محمد / ترجمة د. فاطمة نصر
ود. محمد عتاني / ط ٢ / سطور / ١٩٩٨ م .

* ابن كثير / البداية والنهاية / دار الفد العربي / ١٤١١هـ -
١٩٩٠م .

* د. محمد حسين هيكل / حياة محمد / مكتبة النهضة المصرية /
١٩٦٥م - ١٩٦٦م .

* محمد سرور بن نايف زين العابدين / دراسات في السيرة النبوية /
ط ٥ / دار الأرقم / برمنجهام / ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م .

* محمد عزة دروزة / سيرة الرسول - صور مقتبسة من القرآن
الكريم وتحليلات ودراسات قرآنية / عيسى البابي الحلبي / ١٣٨٤هـ -
١٩٦٥م .

* مسلم / صحيح مسلم / عيسى البابي الحلبي .

* المقرئزي / إمتاع الأسماع / تحقيق محمد عبد الحميد
النميسي / دار الأنصار / ١٤٠١هـ - ١٩٨١م .

* ابن هشام / السيرة النبوية / تقديم وتعليق طه عبد الرؤوف سعد /
مكتبة الكليات الأزهرية .

* Alfred Guillaume, The Life of Muhammad, Oxford
University Press, 1980 .

* Cheragh Ali, A Critical Exposition of the Popular
Jihād, Calcutta, 1885 .

* D. S. Margoliouth, Mohammed and the Rise of Islam, 3rd edition, G. P. Putnam's Sons, New York & London, 1905 .

* Emile Dermenghem, La Vie de Mahomet, Librairie Plon, 1929 .

* Mahmoud Aly Mourad, La Biographie du Prophète d' Ibn Ishâq / Ibn Hishâm - Période Mekkoise : Analyse Critique du Texte, 1996 - 1997 .

* Syed Ameer Ali Moulvi, A Critical Examination of the Life and Teachings of Mohammed, William and Norgate, London, 1873 .

* Virgil Gheorghiu, la Vie de Mahomet, Librairie Plon, 1970 .

* William Muir , The Life of Mohammad from the Original Sources, John Grant, Edinburgh, 1912.